د. كوثر يونس

أنين الربيع

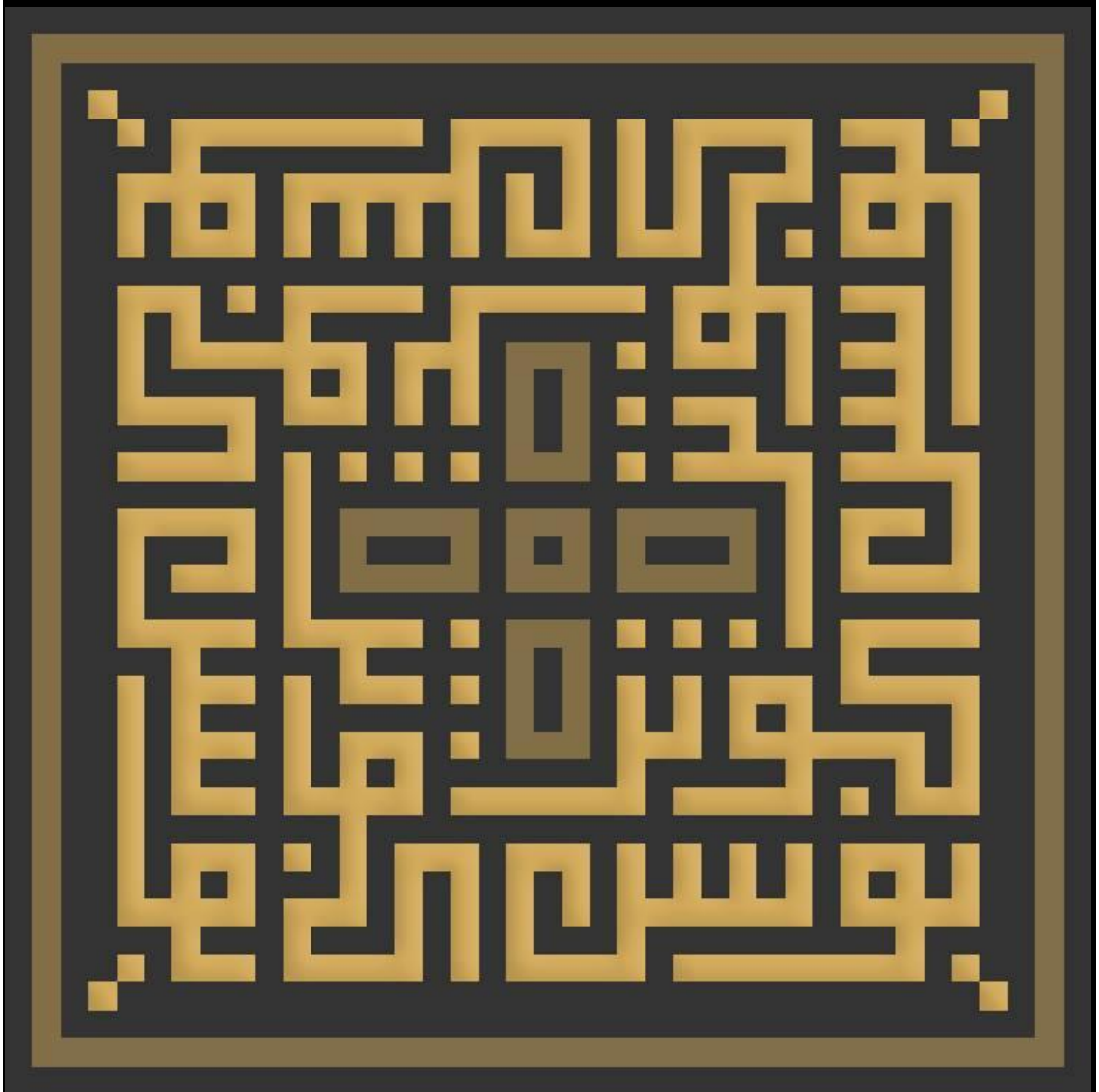

تقديم: أ.د. حلمي محمد القاعود.. أ.د. محمد جمال صقر و: ع.ب

الإهداء:

كلما تمضي الحياة.. ازداد عطشها إلى الربيع.. ربيع شموس تضيء بغير أن تحرق أو تحترق.. شموس تستمد ضوأها من الأرواح الطاهرة والأنفس النبيلة.. ربيع العشق.. عشق كل شيء جميل في كون الله تعالى

كوثر يونس

شكر وتقدير

مفاجأة كانت ولا شك لا أدري كيف أؤدي شكرها لله تعالى

ثم للناقدين الكبيرين أ.د. حلمي محمد القاعود الأستاذ بجامعات مصر

و: أ.د. محمد جمال صقر الأستاذ بجامعتي القاهرة والسلطان قابوس

اللذين قرآ المجموعة وقرظاها، وأثنيا عليها

وهما من هما في دنيا النقد، والأدب، والإبداع، والمنهج الصارم الذي لا يحابي!

شكرًا لهما.. وشكرًا له هو أيضًا

كوثر

إلى

- ✓ ملك الشمس.. العاشق للربيع، وعطر الربيع، ولحن الربيع، وشمس الربيع..
- ✓ إلى همس الربيع، ذاك القابع وراء الستار، هامسًا إليّ: أبدعي واكتبي ولا تتوقفي..
- ✓ إلى كل ربيع عطرٍ أراد، ويريد أن يرفرف في سماء هذه البشرية..
- ✓ إلى كل شهيد ربيع حلم بالربيع ولم يعشه..
- ✓ إلى بطل الربيع؛ ذاك الشاكر أبدًا، العابد أبدًا، الذي يقبع شامخًا صابرًا منتظرًا أن يزهر الربيع، يقوي العزائم ويثبت الهمم، ولم يثنِه جور الطغيان، ولا بطش الطغاة؛ الرجل القوي الصلب الذي يقبع عاشقًا للحق في سجون الفراعنة..
- ✓ إلى زهرات الياسمين ونسائم رياح الربيع في تونس ومصر وسوريا والعراق وفلسطين وكل بلاد الياسمين..
- ✓ أهدى كتابي هذا "أنين الربيع"

كوثر

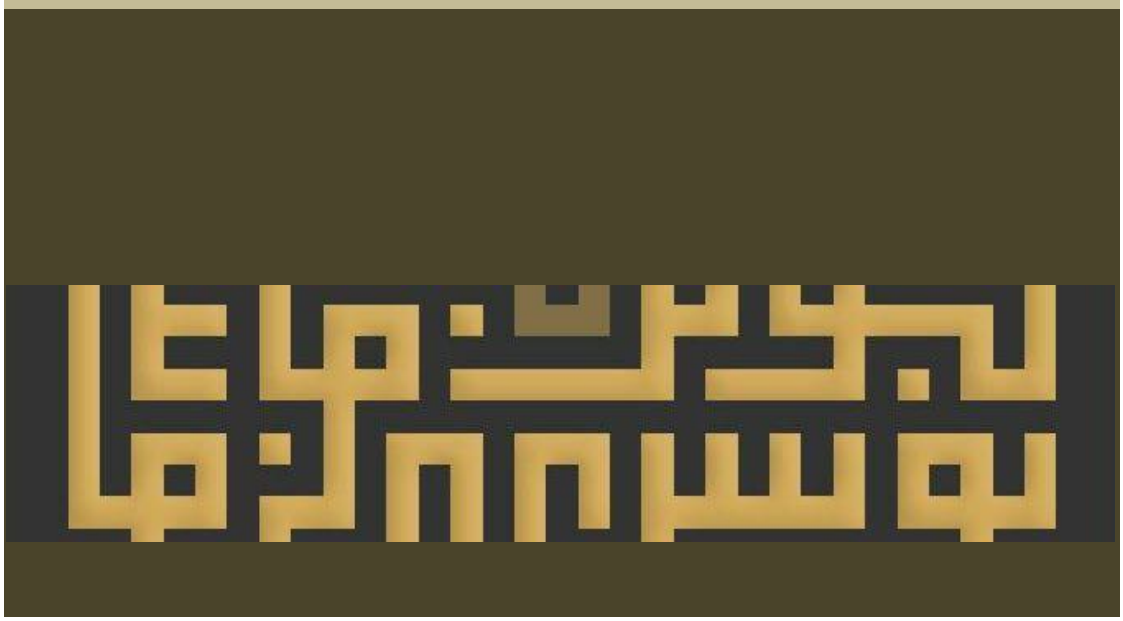

مقدمة

ربيع بلون الوجع

عزيزي القارئ: لا بد أن الترحال في أرجاء الأرض أمر مثير، ولا بد أن السفر داخل النفس البشرية أمر مثير أكثر!

والأجمل من ذلك قراءة كتب التاريخ؛ فما أروع أن تكون كتب تاريخ الربيع منذ أن وطئت قدم الإنسان هذه الأرض هي ملهانا ومسلانا! فترجل أيها الكريم عن حصانك؛ لتشعر معي بلذة قدوم الربيع، وتتألم معي لأنين الربيع..

طوال عقود من الزمن كانت حياة الشعوب مياهًا راكدة، فاقدة لكل حركة! وسلسلة من العادات والاحتياجات والتفضيلات المتوقعة، كغابة أقام فيها الجفاف قلعته القاتمة المخيفة، فهجرتها فصول السنة، واستوى فيها الربيع والخريف، والصيف والشتاء!

وذات ليلة صافية في منتصف الشتاء، تكبد البدر صفحة السماء الصافية، وهبت نسمات ربيعية خفيفة، معلنة قدوم فصل الربيع في غير موعده، فشرعت الأبواب لقدومه، وابتهج الكون، وأُشعلت شموع ذهبية تضيء سماء الشعوب، بعدما كادت أن تفقد بريقها وبهاءها للأبد! ثم ما لبثت ريح هوجاء عاصفة أن هبت، وتوارى الخريف وراء الغيوم؛ كأنه لا يريد أن يرى ما يحدث! وأطبق سكون تام على العالم!

ومهما كنا أو حيثما كنا شعرنا في قرارة أنفسنا – حينًا من الدهر – بأننا غير سعداء؛ كما لو أننا فقدنا جزءًا منا يجب أن نستعيده! كان فينا من لا يمكنه أن يعثر على ذلك الشيء أبدًا، ومنا الذين بإمكانهم العثور عليه، لكن لم يجرؤ إلا قلة قليلة على الخروج، والبحث عنه، على أرصفة اختلط فيها الوحل بالماء، وعصفت الأنواء بزهر الياسمين، في مواجهة سدنة الشر، وكهنة معابد الشيطان، وحفاري القبور، وقتلة الربيع، ليذوي الربيع ويعاني..

وفي ظلمة النفوس التي لا تطيق قدوم الربيع نصب الخريف خيامه، وبدأت معزوفات الشر ترجّع نغماتها النشاز، ولم تكف هذه النفوس السود عن الصراخ والنحيب، حتى تهشمت الورود تهشم الزجاج، وتناثر الأمل في الليل شظايا دقيقة واخزة. خاف الربيع منا وكاد أن يرحل، وخيّم صمت مرعب على الكون من جديد، وذابت الأصوات والتنهدات من حولنا، واستحالت غبارًا خانقًا، وحبس الكل أنفاسه، انتظارًا لحدوث شيء أعظم صادم أكثر لا نعرفه..

كم نثق أن هناك عمقًا يتعذر وصفه، ولا يمكن للكلمات الإعراب عنه، يتدفق بتجاويف أرواحنا وجنباتها، ينير أنحاءها، ويفتش عن الأسرار التي خفيت عنا، ليقبض على الحقيقة براحة يده، ثم يفتحها ليضيء منها بريق لؤلؤة فريدة؛ مبشرة بوعي إنساني جديد! إن إشراقة الربيع لن تنتهي برقصات عشاق الشر، ومهما استهزأت رياح الخريف بزهرات الياسمين، سيظل الربيع يصارع الخريف، وستبقى أرواح شهداء الربيع تنبض بالحياة أبدًا، لتوقد في النفوس شمعة، وتغرس في القلوب أملًا، وتعلن أن الخير أبدًا منتصر، ولو كره المفسدون!

د. كوثر يونس

نسائم التاريخ

وسط عجاج الضباب، ونسمات المطر، تسكر الفِكَر، وتثور مشاعر الروح الكامنة في قوالب الأحاسيس المحبوسة بدوران ساعات الزمن، لتهرب نحو حدائق بابل، وغوطة دمشق، وأهرامات الفراعين، وسحر الصحراء في شمال أفريقيا، وآثار سيدي عقبة، والزيتونة، والقيروان، وصومعة حسان، وفاطمة الفهرية!

وآه لو وقفت أمام نحت الرياح، وغور التاريخ في تلال وجبال اليمن، والجزيرة، لترى عظمة الخالق جل وعلا، في معالم غابة مكتظة بأنواع الحيوان الصامت، في صخور تناثرت في صحراء منسية؛ إلا من عابري الطريق، حتى لتشعر أن الزمن يعود بك إلى عاد، وإرم ذات العماد، وثمود ومدائن صالح، ومعين وسبأ، وصرح الأميرة اليمنية الفطنة العاقلة، فتنتابك الرهبة والفضول من عمق التاريخ، ودقة تفاصيله!

وإن أنخت رحالك في المدينة المنورة ومكة المكرمة، فأنت في رحاب الخالق الأعظم وحرمه الآمن، وعلى خُطى المصطفى عليه الصلاة والسلام، والأفذاذ الذين كتبوا على صفحات التاريخ قصائد للمجد والشرف، ثم لو عانقت الروح بلاد ما وراء النهر، وأواسط آسيا؛ لتشهد مرابع الحضارة سمرقند وبخارى وهراة والحواضر الكبرى، ثم لنُطيف بعدُ ببلاد الخلافة في الشام والعراق والهلال الخصيب، فأعلى، بخضرة المشهد وجماله وثرائه، لتهيم الروح في أفياء سحر الحضارة الإسلامية، وتتصفح ورقات التاريخ الشامخ الزكي، بعد أن تمر هونًا بالأندلس بغرناطة وقرطبة وجنات العريف، ويا له من تطواف للروح والقلب والعقل جميعًا!

يااااااه.. يا له من حلم بديع.. ويا له من واقع وجيع!

توقيع:

إن الفتى من يقول: هأنذا ليس الفتى من يقول: كان أبي

إيقاع العشق

الليل ينذر بالتوغل في غموضه، وقد توشح الكون بحجاب من الصمت الرقيق، الهادئ مثل دثار ناعم في ليلة شتوية باردة..

كانت تعشق محاكاة الصمت؛ فهي تراه أشد الأصوات التي يمكنك سماعها على سطح البسيطة هدوءًا.. ثم على حين غرة اشتد المطر. اقتربت من النافذة ونظرت من تحت خيوط المطر إلى السماء الفقيرة للنجوم في جوف الليل في كل الاتجاهات، ودارت بسرعة من تلقاء ذاتها وتلاشت وذابت في العدم.. مثل درويش يدور حول نفسه في رقصة صوفية رقيقة كحرير دودة القز..

تحت برودة المساء كانت تحس بشذى شيء نضر جميل لا تدري ما هو.. كان هناك ما يطمئنها، ويهمس في روحها أن الريح لم تعد تهمس باليأس.. ومع سمفونية وقع خيوط المطر لامس أذنيها صوت صديقها الروحي، يخترق صوت الفراغ الصافي في تلك اللحظات، ويطلب منها بسحر ناعم كندف الثلج أن اكتبي عن العشق..

العشق كلمات لا تحكى؛ بل تتحرك داخلك أشخاصًا مجسدة في مسرحية قديمة.. ليس مجرد ظل لخاطر مقدس لم يقدم قبل ذلك فحسب؛ بل سرمديًّا خالدًا ينبع من أتقى عمق في القلب..

إن الكتابة عن سر عميق وشديد الحساسية كالعشق أشبه بمحاولة الإمساك بريح عاصفة..

داخل كل منا حزن قابع وعشق صامت! وقد نعيش ذلك الصراع مرات ومرات في عقولنا؛ دون أن نعرف أين تكمن الحقيقة وأين يكمن الخيال!

قد تختفى الكلمات، ويتلاشى الحاضر، ويذوب الواقع، وينتصب أمامنا مسرح عظيم، يتحرك فوقه أبطال العشق الذين قرأنا عنهم، ولكن تبقى قصص العشق في الذروة.. برغم تكرارها..

أخذت نفسًا عميقًا، وخطت بقلمها: صديقي العزيز: هناك كلمات يحس المرء أنه كتبها بقلمه، وأخرى يحس أنها أُمليت عليه من أعمق وأنقى ذرات كيانه ووجده: العشق هو المقدس الذي لا يحتاج إلى أحد، ويحتاج إليه كل أحد..

هو جوهر الخلود؛ فجميع البشر يرتبطون بسلسلة من القلوب.. إن انفصلت حلقة منها حلت حلقة أخرى في مكان آخر..

وكما يحمل ماء البحر في داخله سر المحيط برمته؛ فإن العشق يعكس أسرار الكون ويخفيها..

كل شيء في هذا الكون يتحرك بموسيقى العشق وإيقاعه: الطبيعة تغني عاشقة.. خفقات القلب تنبض بأنغامه.. رفرفة أجنحة الطير.. هبوب الريح في ليلة عاصفة.. اصطفاق أمواج البحر وانسياب الجداول وذوبان الثلج...كل شيء يشارك في رسم العشق بفطرية عجيبة.. وفي نغم واحد رائع..

في أثناء الحزن والشوق اللذين يطوفان حولي ببطء، يلفني وشاح العشق بطعمه الأزلي كل يوم وكل دقيقة، إن قلبي قلعة يقبع فيها الحبيب ملكًا متربعًا على عرشه السحري الأنيق..

وكما يحتفظ الجبل بالصدى داخله، يقبع صوت المعشوق داخلي.. ويحيلني العشق محضَ باحثةٍ عن المعشوق الذي لا أجده في أي مكان؛ لأجده في كل مكان حولي!

توقيع:

أولى بهذا القلب أن يخفقا وفي ضرام الحب أن يحرقا

ما أضيع اليوم الذي مر بي من غير أن أهوى وأن أعشقا!

ضربة الإزميل الأخيرة

تمرغ بضوء الشمس الدافئ، وتخللت زرقة السماء الصافية أطواء عقله، فأحس بالامتنان؛ لأن الأشياء حوله تحيطه بحنانها وجمالها، وبيديه اللتين أذبلهما أربعون خريفًا، جلس ينقر في صخرة، مع وطأة شعاع اليقين الذي عانق عقله المغترب!

كانت الصخرة أمامه كتلة هامدة بلا حياة، نحتتها الريح ويد الزمان. شرّع جميع نوافذ عقله كي تهب عليها موسيقى وروائح الكون، وبوحي من إيمانه المكثف والمتصاعد بأفكاره، ومع كل مرحلة من مراحل التشكيل، كان يهزّ الصخرة، ويعبث بها من جوانبها كافة، ثم يصيح حتى يتصدع صوته مثل جليد رقيق: من أين أتيت؟ وإلى أين أنا ذاهب؟

أسئلة عميقة تكاد تنكسر على حوافّ عقله المندهش، الغارق في أسرار الوجود، كان يشبه لوحة فسيفساء، مؤلفة من قطع كثيرة، يتقد أفكارًا وحيوية يصعب أن يستوعبها عقل وجسد واحد!

حل صمت أخرق على المكان برمته، وتناثرت أوراق الأشجار من حوله، وللحظة كانت هي الأشياء الوحيدة التي تتحرك، ترك عقله يقطع دروب الصمت، ويختلق اللغة التي يمكن أن تدور بين الأشجار، وأوراقها التي فارقتها في وهن شديد، اللغة التي يمكن أن تخفى الحقيقة أكثر مما تكشفها، في عالم محفوف بالترجمات السيئة!

بينما هو في استلقائه، لاهثًا عقله تارة كجواد جامح، ومحدقًا في السماء تارة أخرى، مثل ظل صامت، فاض عليه إلهام لا يدري إلى اليوم مبعثه، عوالم من البوح والتردد تتداخل، لتتلوى في داخله مزيجًا من أشواق ومشاعر لم تفصح عن نفسها بوضوح:

لطالما تساءل: أهو من الطين، أم من الروح، أم من العقل، أم منها جميعًا، يحتار.. يتردد.. يهتز.. ثم يقفز قفزة واحدة فإذا به يستوي واقفًا على قدميه بكامل قوته وعافيته، ترقص من الحبور ملامحه!

ألقى على الصخرة نظرة فرح، ممزوجة بالتأمل واليقين، ثم نادى بصوت يملأ الآفاق: سأحطم إبداعي إلى شذرات، حتى لا يعدو أن يكون مجرد ذرة من العدم، عابر سبيل في الفراغ المحض، هباء الهباء فى هندسة هذا الكون العظيم!

كانت تلك هي الفكرة التي آمن بها، حتى أحس – أو هكذا – اعتقد أنه يلامس الروح ملامسة، ثم يقبض عليها، ثم يدفع بها إلى رحم هذه الصخرة الصامتة.

ومع ضربة الأزميل الأخيرة! بدا له الكون رائع الملامح، ينطق بالكينونة كلُّ ركن فيه، شعر بأنه أبحر في جوهر الإيمان؛ فالإيمان مجرد كلمة؛ إن لم يكن العشق في جوهره فانه يصبح رخوًا، مترهلًا، يخلو من أي حياة، غامضًا وأجوف!

ابتسم لنفسه وهمهم قائلًا: لم أختر؛ بل الطريق هو الذي اختارني!

حلم فضيلة

زمن طويل مر عليها لم تختل بنفسها؛ فاغتنمت فرصة غياب الجميع لتجلس وحيدة مستغرقة في الشرفة، على كرسيها الهزاز الذي تحب الجلوس عليه، تحدق في الغروب بلونه الأحمر المائل الى البرتقالي!

فجأة هدأ عقلها الذي كأنه بدا تعبًا من الضجيج الذي يدور فيه، وبدت لها السماء قريبة جدًّا منها، قريبة إلى درجة أنها تكاد تستطيع أن تلمسها!

لامس روحَها ضوءٌ متوهج يملأ المكان، كورود من نور تتفتح في بحر أزرق برّاق، وأحست كأنها تضع إصبعها على نبض شخص يرشدها إلى الحقيقة.

مرّ الوقت بطيئًا، وأسدل الليل ستاره ليبزغ ضوء القمر الذي كان يضيء شطرًا آخر من الكون اللاهي..

في هدأة الليل تنعتق أسرار الكون من فكر فيلسوف جامح، وأخرى من عشق صوفي مشتاق! ولكنها لا تتقن لغة الفلسفة، ولا عشق المتصوفة!

ما كل هذه الأسرار؟ هي فقط تبحث عن شيء يحاكي حفيف النسيم بين الأشجار! تبحث عن شيء يشبه خيوط النور التي تذوب، وتتلاشي ببطء شديد، هي تلك الفضيلة التي تطرق الأبواب الموصدة، كما يطرق العشق جموع الأبواب، وترى أن معظم مشاكل العالم تنبع من تخلي الناس عن الفضيلة؛ تلك السجية الروحية، جوهرة الحياة، وهدفها السامي!

ولكن من أنت أيتها الفضيلة؟!

ولماذا لمجرد لفظك ترتعش بعض الأوصال، ويتسلل العشق من قلوب أصحابها هربًا ليتوه وسط مسارب الفناء، خوفًا منهم؛ باكيًا سجايا الأنبياء! وأمام فيض التمجيد الكذوب، والنفاق المبتذل تختنق الفضيلة كمدًا؛ فلا هواء ولا ماء!

فراغ في داخلها يزداد عمقًا واتساعًا، ينغل في روحها كمرض ناهش بطيء، كالسم ولكنه قاتل! لقد ضاعت الفضيلة، وهاجرت الأتقياء والأشقياء، فكان صمتٌ أبكم كصمت القبور المحطمة! كبركة ماء فاقدة كل حركة ونبض حياة!

وفي لحظة غير معلنة انتبهت أنها أقلعت في رحلة مع الفضيلة، وأنها يجب عليها الهبوط؛ فقد اشتد سواد الليل، وبدا الهواء كليلًا كئيبًا!

وفي نظرة عفوية رنت نحو البيوت المجاورة لتراها سادرة في هوان أفكارها، ولامبالاتها، ومغمورة في أنواع حزن تدور وراء الأبواب الموصدة: نوافذ مغطاة بستائر، وأجساد تبحث عن حياة تعيشها؛ ما بين الحب الخالص والكره المحض!

تصرفات غريبة، وآراء أنانية، كل شيء يتحول باستمرار، يبرز إلى الضوء، ينتشر، يزدهر، ثم يذوب، ويتفسخ كما تتفسخ الفضيلة من معجم بعض البشر!

ندف الثلج

وراء ندف الثلج الهاطلة، والدروب المكسوة بالثلوج، ظهر متدثرًا بعباءة أسراره، غارقًا في صمت ناعم، يتأمل تلك الطبيعة، الراقدة تحت ملاءة ثقيلة من الثلج!

يدقق في تجاويف روحه وقممها، يتساءل عن وجه التشابه بين رحلة زخات الثلج ورحلة البشر!

قسماته قسمات رجل يكافح بضمير، ويجد صعوبة في التوصل إلى الإجابة المقنعة. يشع حماسة وحيوية، ويحترق في داخله التساؤل، مثل كرة من نار! وكأن الزمن يتدفق بصورة مختلفة بالنسبة له أسرع وأكثر حدة. يريد إشباع فكره دون أن يفسده، فتراه ينهل من كتب الفلسفة والتاريخ والصوفية والفكر الإسلامي، والحداثة، وما بعد الحداثة!

وعندما يلج دائرتي الوجود والفناء تكون اللغة التى عرفها قد عفّى عليها الزمن؛ فالشيء الذي لا يمكن التعبير عنه بالكلمات، لا يمكن إدراكه إلا بالصمت في إذعان واستسلام!

يرى أن بعض الناس يخطئون عندما يخلطون بين الإذعان والضعف؛ فالإذعان شكل من أشكال القبول السلمي بشروط الكون؛ ومن بينها الأمور التي لا نستطيع تغييرها أو فهمها حاليًّا؛ كرحلة زخات الثلج التى تذوب في نعومة واستسلام، مفارقة تلك الطبيعة التى دثرتها مدة من الزمن!

يصرخ العقل المفتون بالمظاهر، يائسًا من الأعماق، كلما رأى زوال معشوقاته، وتئن الروح ساعية إلى محبوب خالد!

في الخارج، بدأ الليل يرخي سدوله، وتسلل شعاع من ضوء القمر من خلال النوافذ المفتوحة، لينعكس الضوء على وجهه، لترى صاحب أشد العيون تأملًا يريد أن يقبض على الحقيقة براحة يده، كما لو كانت لؤلؤة ثمينة!

مع انبلاج خيوط الشمس نظر إلى الغطاء الأبيض فرآه قد بدأ يذوب، ويتحول إلى مياه رقيقة ناعمة! أمام المشهد استنشق نفسًا طويلاً من الهواء النقي البارد، ورسم على وجهه ابتسامة رضا، فبدا وكأنه شجرة تنتصب قائمة فوق صخرة شماء، فاتحة يديها، متطلعة إلى السماء، وتهتز أغصانها الرقيقة مفعمة بأشواق لطيفة وأذواق سامية، متوشحة بجمال روحي نقي، يهزّ طبقات العشق، بل يمس أعمق الأوتار وأشدها حساسية.

رسائل العشق

ينادمها الأفق، وانعكاس لون الغروب على سطح البحر، ويرافقها صوت انكسار الموج على صخور الساحل الشرقي! وعبر زجاج نافذةٍ غرفتها كانت تحاكي البحر؛ ذاك الذي يبعث برسائل العشق السرمدية!

نظرت إلى صفحات دفترها البيضاء، تريد أن تكتب شيئًا! شيئًا غامضًا مجهول الهوية، تحاول أن تكشف به عن سر قداسة السماء وغموض البحر، لكن كأن النبض ينتظر من دون جدوى..

استرخت على كرسيها الهزاز وأغمضت عينيها، انصهر عالمها الخارجي، وذابت مع هدير موج البحر الهائج عبر النافذة! صهيل خيول، ووقع حوافر، إيقاع كوني ساحر، وأطياف لا نهائية، ورسول عشق يحمل رسائل!

وقفت روحها أمام البحر فأحست كأنه يعرف كل شيء! كأن الموج يذكر كل شيء: حنينها وبراءتها، شوقها وألمها، براءة الربيع، وخيبة الربيع! ربيع العشق وعشق الربيع، لكن خامرها شعور بأن أمام الربيع تنتحر الأمواج على الصخور الصلبة، قبل أن تدركه الخيبة.

تستجديها تلك الصفحات البيض من جديد أن تنقش عليها شيئًا فريدًا هذه المرة: رسائل العشق! رسائل العشق! هكذا طلب منها ذاك القابع وراء الستار أن ترسم، أمرًا صعبًا رأته وأقرت بعجزها؛ فاجتياز الفاصل العظيم بين المحدود واللامحدود، بين النسبي والمطلق، بين الإنسان والكون، بين الخير والشر، بين القبح والجمال أمر مستحيل على الصعيد المنطقي والفيزيائي؛ ففي الإنسان وداعة تتبدى في البحر سطحًا أزرق؛ غير أن وراءها قوة تدمير هائلة.. وأي قطرة ماء تسقط بانتظام على صخرة، تستطيع أن تثقبها بقوة لا تستطيعها رصاصة تنطلق من سلاح..

لكن ذلك قد يبدو ممكنًا عن طريق الشعور والوجدان! عن طريق هذا السفر نحو المطلق والقاصي؛ عبر العشق المطلق للمطلق: عشق الربيع، وربيع العشق! عشق النقاء والصفاء، عشق كل شيء جميل!

أطالت الوقوف خلف زجاج النافذة تتأمل البحر، وتتأمل تلك الأرض الخضراء الطيبة التي تحيط بالبحر من كل جانب.. تأملت كليهما: البحر والبر، واستسلمت أخيرًا لإحساس فياض، كجدول رقراق ينحدر من أعماق روحها، أشد نعومة من نسمة عطر، أو شعاع قوس قزح!

داعبها إلهام الكتابة، فانطلقت تنثر مرائيها على الورق: إن إدراك العاشق ذاته قد يؤدي إلى إدراك الوجود كله، ذاك التذوق الخاص، والتجربة الفياضة!

لا أشك أن سفينة العشق قادرة على العبور ذهابًا وإيابًا بين شاطئ الإنسانية وشاطئ الوجود والخلاص.

ما العشق إلا تعبير عن تلبية النداء الروحي، لأشخاص قادهم التأمل، أو الفلسفة، أو العزلة، أو فهم العقيدة، أو عوامل عدة إلى سلوك دروب العشق، وعيش اللحظة، وممارسة التجربة! فلم لا يكون حاديهم نحو دروب العشق: النقاء، ونور القلب، وشفافية الروح!؟

في غمار العشق تخرس العبارات؛ فلا بيان، ولا نطق، ولا خطابة، ولا إفصاح؛ بل إن العجز عن التعبير علامة صدق العشق، وعمق الذوق، والفناء في كل ما هو عاشق، وكل ما هو معشوق!

يفنى العاشق في المعشوق، والطين المظلم في نور الروح، يتجوهر ذاك العرَض، ويتكوثر البحر المالح!

عبر التاريخ الإنساني توالت رسائل العشق وقواعده التي لا تُخطئ رسائل وقواعد ملموسة عبر الزمان والمكان! لكننا قلما نستطيع الإفصاح أو التعبير عن تجربة روحية ذوقية تنتمي إلى عالم آخر منفصل عن الزمان، والمكان!

العشق شيء غامض، ومعنى يصعب أو يكاد يستحيل الإفصاح عنه، مهما تفنن القلم في إلباسه أثواب اللغة؛ فله حيويته وحرارته، وله لذته ومتعته! هو أشبه بموجة قوية، تجرف أمامها كل الأشياء التي تعترض سبيلها، لتلقي بها بعد على شواطئ الخلاص!

توقيع

صباح العشق

داعب الوسن جفنيها، فاستسلمت لنوم عميق هادئ! ومع إشراقة الصباح رافقتها الفراشات، ورائحة الأنداء الصباحية، وسط حقول القمح الممتدة على طول الربوة التي تطل على البحر..

تتعطر بعطر القمح لتغوي أرقها، فلعلّها تحلم بغد آمن لأولئك الأطفال، وتصنع تيجانًا من الأقحوان الأحمر تضعه على رأس كل عاشق وعاشقة، وتنفض عن روحها ملامح الرهبة، فانتهت مع الفراشات إلى رقص رشيق لين، فضاؤه المدى، وإيقاعه صوت الطبيعة البكر، وضوؤه نور البدر في ليلة صافية!

أدركت أنه لولا العشق، وسحر العشق، ما تجلت لنا الطبيعة فاتنة ساحرة!

لولا عين العاشق لكانت الدنيا حولنا طبيعة صماء، وقوة عمياء، مملوءة بالآلام والهموم؛ حتى يغدو العالم مليئًا بالأحزان والدمار، ويبقى الإنسان أعزل وسط غرباء بلا حام، ولا مواسٍ؛ ليظل في مأتمه الدائم هناك!

لقد تراءى لنا جمال العشق ففزعنا إليه، واعتصمنا به؛ فهل يوجد بعد العشق ملجأ نلتجئ إليه، وملاذ نلوذ به!

عبر حجاب العشق نحن ألوف العيون الباصرة، تطل من السماء إلى الأرض وترنو إلى الربيع؛ ربيع العشق، ربيع النفوس الطاهرة! إننا بأذن العشق نستمع إلى النجوم وإلى حلو خطابها، ولذيذ هدهداتها!

إن ظاهر البحر ضوء لا يخفى، وقعره ظلمة لا ترى، وبينهما حيتان لا تستأمن، وتيارات جارفة لا تقاوم، ومع ذلك فمن فينا لا يعشق البحر!؟

ذاك الجبار الذي سحق بثورته آلاف السفن منذ بدء الخليقة الى اليوم؛ وبقوة العشق بدأ الانسان يفقد رهبته من البحر يومًا بعد يوم، تلك الرهبة التى اقترنت بالبحر منذ بدء البدء؛ فولا العشق ما ترنم بسحره شاعر، وما غاص غواص، ولا التقط صياد اللؤلؤ والمرجان والذخائر..

ولولا ذاك الحس السرمدي الخالد الباقي ما فقهت النفوس العاشقة ذلك القول الذي ألقاه الحق في سمع السحاب، فصب من خلاياه دموع الحياة على الأرض اليباب فاهتزت، وربت، ودبت فيها الحياة، وذاك الذي تلاه الحق على مخزن أسرار، وحاملة أخبار، وشهيدًا صمتًا، وأما رؤومًا!

لأن العشق هو الإكسير، وترياق القلب الكسير، فلولاه ما أحبت أم ذاك المولود الذي جاء بعد مخاض عسير، والآلام التي كادت أن تفتك بها!

ولولاه ما رحمت أم طفلها المقعد المعوق، ووهبته كل ذرة من ذرات كيانها ووجدانها!

العشق هو ضوء الروح، وهو الستر، وهو الحلم، وهو الرحمة، وهو القلب الحنون!

العشق نور يفيض على الوجود من عالم الطهر والصفاء، سطعت شمسه على الأكوان وملأت القلوب نورًا، كل ذرة في الوجود مرآة تعكس صورته.. تتفتح عنه الورود.. وتشدو به الطيور.. ويتساقط على سمفونيته زخات الثلج وانهمار المطر.. ويستمد النور من ناره الضوء الذي يجذب الفراش الى أقداره..

لولا العشق ما تجلت لك حقيقة ذاتك؛ ولم تراع تلك البراءة التى يعكسها وجهك، وقت كنت رضيعًا ثم طفلاً، فلا تخضع لزمان لكونه فانيًا، ولكون روحك لن تتغير وليست فانية!

إن كنزك هو العشق الذي أنت فيه، والذي تريد أن تخمده وتكسره! فاحفظ ذلك الذوق، وذلك الإحساس النبيل، وتحقق بحب الله فيه؛ تسطع عليك شموس المعرفة والحب والخلود، وتحقق مراد الله من خلقك، وتفز بفرصة السعادة قبل فواتها؛ فهو الموصل إن تحققت به، والحجاب إن غفلت عنه!

من أعلى الربوة أطلت على البحر لتشاهد الصيادين يعبرون الشاطئ، محملين بصيدهم؛ غير مكترثين بتعبهم، حالمين بوجبة من السحلب الساخن، والخبز الطازج، ونظرات عشق ورضا مرسومة في عيون زوجاتهم وأطفالهم..

إن كل عجائب الحياة الإنسانية مدينة بالوجود لهذا العشق السرمدي الخالد، وإن الشر والكره والحقد والظلم خصوم لُدٌّ للعشق والحب والبراءة، أدخلتها في جوف الإنسان يد الحماقة البشرية، فباتت تلك النفس غارقة في ضباب سميك!

ووسط هذه الظلمة المظلمة، والرعب الوبيل، لا يبقى إلا أن يتوجه الإنسان بكل وجوده الروحي أو ما تبقى منه إلى الله سبحانه، لتُخرج من جسده يد اللطف الإلهي كل ما يشوب هذه النفس البشرية، فتبيت غارقة في بحور العشق!

وحين تنحدر السحب الملبدة تحجب نور العشق وضوء القمر الشاحب، وتهب الرياح بعنف، معولة في صفير يدفع الشؤم لأقسى القلوب، ويحل الخراب والدمار

وتكون الأحزان في حجم الأرض، وتفيض حتى تغرق الروح في بحار الندم، وتهلك وتيأس؛ فمن دون العشق تصبح أرضك بلقعًا صفصفًا، لا ترى فيها عوجًا ولا أمتًا!

انتبهت وهو تقول لنفسها بصوت عال، كأنما تحدّث كيانًا أمامها، منبثقًا عنها:

العشق يا سيدي أزلي مستدام سرمدي متوارٍ خلف أفقٍ فينوسيٍّ الأثر!

العشق ذلك العطر بعنفوانه الأريجيِّ، وعضويته الجنينية، وابتسامته البِكْر السخية! لن أستقيل من رحيل غرائبي، وسأبقى أنتمي إلى جوقة من رائحة الياسمين الربيعية، ابنة العشق وحبيبته... لهذا العشق مأثرته العجيبة ولغته «الكحلية الزرقاء» وسبيله الزَّبَدِيُّ الخالص، وملحمة المهَجَّرون ومأساة المهاجرين! والشاكرون العابدون الصابرون..

دام ربيع عشقكم، وطهر قلوبكم، واتسع جناح أحلامكم سعة الأفق، والأرض والبحر، وامتلأت جوانحكم بموسيقى الغاب، وإيقاعات الجداول، وترنم ريح الصبا، وأحلام البراءة والنقاء.. دام عشقكم لتدوموا بشرًا!

توقيع:

حديث البحر

تكلم أيها البحر تكلم: ما سرك؟ قل لي: ماذا تكتم؟

موجك هذا أنَّى يعلو.. زبد البحر على شطآنك كيف يموت ولا يتكلم؟!

تكلم أيها البحر تكلم.. احك أقاصيص العشاق ودع الموج هناك يترجم

اهدر بأهازيج العشاق.. اترك موجك يشدو.. يترنم

إني أسمع صوت القلب يعبر.. وهذا الموج هنا يتحسر.. يتألم!

ألمس سحر لقاء حبيبين وموجك يستحيي أن يتكلم!

قل يا هذا البحر ولا تخجل..

عن عشقك لغروب الشمس.. عن عشقك لوشاح الشمس الأحمر..

عن عشقك لعناق الفجر.. وعطر ندى الأسحار..

بح بشذى عطر الحب.. يُعطر نسائمه العبّاقة بالسحر، ولا تتبخر..

وعناقك للنوارس البيضاء تتمايل مع موجك الواني.. فلا تملّك ولا تهجر..

عن عشق صيادٍ عجوز عشق أمواجك على الصخور تثور وتتكسر..

يظل يعانق غضبك ولا يخشاك ولا يرحل..

ولقدوم الربيع يعانق ابتسامة الكون ويلبس حلة من بنفسج الماء..

تتعطر بعطر الياسمين والصندل..

تفزع صارخًا: يا بني البشر: لا تتركوا الربيع يئن ويتألم..

تكلم أيها البحر تكلم لا تخجل، لا تكتم شيئًا واحكِ لنا عن لوعة قلبٍ عاشق..

عن شوق الموج وعشق الريح.. حتى يعلو ثمُة يفتر..

احك عن العاشق لجميل مداك.. عن زرقتك يهيم بها قلب محبٍّ مغرم..

يرى جبل الأمواج الصاخب يعلوك رسولًا للحب.. برسائل عشقٍ يتقدم

يسمع مناجاة الحبيبة عند موجك يقف وقوف محبٍّ يتلعثم..

يلملم أشتات القصائد فينطوي حزينًا على الفراق يصرخ، يبكي، يستجدي من عنف الموج حروفًا.. يبعث برسالة اعتذار لحبيبة أعياها الانتظار، ولم تستسلم.. فتكلم..

احك عن جمال الشمس عند المغيب ولا تكتم.. وعن التقاء العشاق عند شاطئك.. كيف تهدأ وتهيم وتصمت.. عند التقاء الأرواح كيف تغار وتستلهم.. ولصياد اللألئ في أعماقك ترنو وتسلم.. ولإبحار سفن العشق فيك تهدأ فلا تثور ولا تزمجر ولا تتقلب.. وللقلوب المذنبة تعفو.. تتفهم.. ولدمعة المظلوم تبكي وتتألم..

تكلم، أيها البحر تكلم..

أحبك أيها البحر وبحديثك أهيم.. له أستسلم..

وعلى شاطئك الساكن أترقب قدوم ربيع يحمل أملًا وبشائر!

ومع فراش الياسمين أرقص.. أحلم!

موت قبل الموت

نفس الإنسان؛ ذلك الجوهر الذي يسعده ويشقيه، يمرضه ويشفيه، يجعله مرحًا كأن الدنيا بين يديه، ويضيق فتضيق وكأنها ثقب إبرة.. هذه النفس التي تنحرف وتعتدل، تزكو وتضمر، تكون عبقرية نقية، كأنما يوحى إليها من السماء، وتكون شريرة كأنها قبس من الجحيم!

هذه النفس هل عرفناها؟ هل حددناها؟ هل سبرنا فجورها وتقواها، تمردها واستكانتها؟ هل صورنا أمراضها واهتدينا إلى علاجها؟إن علم النفس – بكل الجهود المضنية التي بذلها – لا يزال يقف عند الشاطئ، ولا تزال نظرياته مجالًا للاختلاف والشك، ولا تزال تتطور جيلًا بعد جيل، وطرائق بعد طرائق..

تدفقت الذكريات من أشتات الذاكرة لتأخذها الي السيدة كوزان.. مريضتها التي كانت تتابعها بمستشفي الأمراض النفسية بشاركو بباريس..

مستشفى شاركو للأمراض النفسية: جمال المكان وروايات الزمان، أبطالها مرضى نفسانيون كانوا بالأمس القريب أناسًا عاديين يشع منهم حب الحياة، فيصبون إليها في لهفة وعناق جميل.. ثم قست عليهم الدنيا، وربما أحبتهم، وربما أنفسهم – لا تدري من بالضبط – ليغلقوا أبوابًا كانت بالأمس مشرعة على شوارع الحلم والعلم، والأمل والعمل، والسفر والطموح اللامحدود.. ويفتحون نوافذ ضيقة يطلون منها على جزء من عالمهم القديم؛ ليتذكروا الاسم واللقب، وبعض الذكريات التي ترفض الرحيل عنهم كما فعلت نظيراتها..

جلست إلى مكتبها في الطابق الأول من الجناح الأخضر، تتصفح ملف السيدة كوزان؛ بينما اهتمت الممرضة بإحضارها لأول جلسة معها..

كانت السيدة كوزان في الخمسين، سيدة من عائلة أرستقراطية من نبلاء فرساي.. ترملت من أربع سنوات؛ لتبدأ رحلتها التائهة يوم توفي زوجها!

لم تكمل قراءة السطر العاشر من ملف السيدة حتى طرق باب المكتب، ودخلت سيدة تمشي بخطوات ضيقة بطيئة واهنة.. مقوسة الظهر.. تقاطيع وجهها تكاد تغطيها أغوار وأخاديد عميقة.. وعيناها الذابلتان تشبهان عيون الموتى.. يتوج رأسها ذلك الشعر المشتعل شيبًا، وكأنه صفحات بيضٌ غسلتها أمطار الزمن؛ لتمحو بذلك كل الخطوط، وتنزع عنها كل الحبر!

جسدها ناحل لم تبق منه السنون إلا العظام؛ فكأنه هيكل يرتدي كيسًا من جلد رقيق خشن.. وخطواتها مرتجفة حتى ليبدو للناظر أن ريحًا مجنونة تتلاعب بخصلات شعر متدلية على كتفي الدهر لتلمس وجهها، فألبسها الزمن بذلك حلة عجوز في الثمانين!

جلست على الكرسي واضعة ساق على ساق، ونظرت إلى طبيبتها في كبرياء، وكأن نظرة استعلاء الارستقراطيين فطرية فيها، فلم تنسها كما نسيت أشياء أخرى!

– أنت تركية الأصل أليس كذلك؟ كل ملامحك تدل على ذلك؟ سألت السيدة كوزان الدكتورة بنظرات باردة، مسحوقة تحت تيهٍ بليد..

– لا أبدًا سيدتي مع ابتسامة خفيفة.. هكذا ردت عليها الدكتورة..

– إذن فأنت رومانية؛ حتى لهجتك تقول ذلك!

– لا أنا تونسية سيدتي..

– آه.. تونس ذالك البلد الرائع..

زاغ بصرها فجأة، ثم استسلمت لبكاء طويل، ولم تتوقف إلا بعد مدة من الزمن، تحت رجاء الطبيبة المتكرر أن تتوقف.. ثم نظرت إليها بحزن يتدفق من عينيها تدفق جدول هاجرت ضفافه الأزهار والخضرة؛ ليمر في صمت كئيب، فاقدًا إيقاع مياهه، وروعة انعكاس شمس الأصيل على سطحه..

قالت في حزن أليم؛ وكأنها تسترجع ذكريات من الزمن البعيد:

– زرت تونس مرتين مع زوجي، وتمتعنا بجمال شطآنها وروعة صحرائها، وحرارة شمسها الرائعة.. كم كانت أيامًا جميلة مدهشة..

استوت في جلستها فجأة، ونظرت إليها نظرة حقد وفزع، قائلة في غضب شديد:

– أنت ستموتين!

أجابتها الدكتورة في هدوء وسكينة: لماذا سيدتي!؟

ردت دون أن تنظر وجه طبيبتها: مات زوجي، وأنا سأموت، وأنت كذلك ستموتين! ثم أخذت تصيح بصوت عال: كلنا سنموت؛ إنه الموت، إنه الموت!

التفتت إلى الممرضة التي كانت موجودة طيلة الجلسة، وطلبت منها أن ترافقها إلى غرفتها..

ارتمت الدكتورة فوق الكرسي، تتخبط بين موج من التفكير في جزع هذه المرأة وخوفها من الموت! هذا الخوف الذي قتل فيها حب الحياة، فغادرها حطام جثة، متدثرة بطلاء باهت فاقد لكل لون، تترقب أن تلفظ أنفاسها مفارقة الحياة للأبد!

امتثلت السيدة كوزان لمئات الجلسات العلاجية مع أطباء كثيرين؛ لكنها لم تتماثل للشفاء، وبقيت حبيسة الخوف من الموت، فانطفأ سحرها، وهجرت عالمًا مليئًا بالنجاحات والأعمال والمؤتمرات والزيارات السياحية لعدة دول، فسجنها مرضها وراء سياج مستشفى الأمراض النفسية أربع سنوات...

أرادت الدكتورة مساعدتها بكل جهد، فأكثرت الجلسات معها، وأجابتها عن أسئلة كثيرة عن الموت والحياة، فقد كانت كل مرة تفاجئ طبيبتها بسؤال أصعب من الآخر!

لماذا وجدت؟ وكيف أموت؟ ولماذا أموت؟ وماذا بعد الموت؟ وماذا قبل الحياة؟!

كيف تقنع سيدة بحقيقة الموت وهي ترفضها، لكونها ملحدة لا تؤمن بالله الخالق الذي يحيي ويميت؟! كيف تقنع من لا تؤمن بأن بعد فراق الدنيا برزخًا ثم جنة ونارًا!؟

أشقاها البحث في الإجابات المقنعة، وأدركت أنها مستسلمة لفكرة الموت، وأن الحياة والجنة هما فقط ما نعيشه في الحياة الدنيا!

كيف تحدثها عن عالم الآخرة الذي لا يخضع لزمان ذي أبعاد محدودة كزماننا؛ لأنه عالم أبدي سرمدي، موصوف بالبقاء، خلافًا لدنيانا الفانية..

إن هذه المعاني والحقائق المتدفقة عندما تنسكب في شغاف القلب، ويرتوي بها الكيان، وتلهج بذكرها ألسنة الخلايا، تثمر معرفة لا عهد للعقل بها، بل لا تدخل في دائرة المعرفة العقلية، وإنما هي من ثمار المعرفة القلبية الثابتة اليقينية!

هذه ميادين لا تزال كلها بكرًا، على الرغم من كل الجهود التي بذلت، وعلى رغم كل الادعاءات المستندة إلى فهم، والمستندة إلى دجل وسوء فهم! ولا تزال – وستظل إلى ما شاء الله – مجال الإيمان الذي لا يستطيع العلم أن يقتحم منطقته!

مرت الأيام بسرعة كما مرت الشهور، والسيدة كوزان كما هي: حبيسة خوفها من الموت، لتعيش الموت قبل أن تموت!

وفي ليلة اتصلت بها صديقة مغربية اهتمت بالسيدة كوزان بعد مغادرتها المستشفى ورجوعها تونس، لتقول إن السيدة كوزان توفيت! سألتها في ألم: هل انتحرت؟ فأجابت بحزن: لا؛ لقد ماتت مخنوقة بحبة فاصوليا وقت تناول وجبة العشاء..

السيدة كوزان المسكينة.. رحلت دون أن تعيش جمال ربيع الإيمان..

زهرات الياسمين

في متاهة الخطّ البيانيّ الصّاعد الهابط كنت تبحر أيها العزيز. تمشي في ظلام قاهر مرعب مخيف، تستمع إلى خشخشة الأوراق الميتة تحت قدميك، ورائحة القهر تزكم أنفك!

تنظر إلى العقل فتراه غارقًا في محيط ساذج، يسبح في انتكاسات المواضي المتعبة: سنين شنقت أطيافها على أسوار قلاع الوهم المزعوم، وسكون مرعب يلف المكان. صخب شديد يرجئ وقد البراكين، أصوات تربك المكان أينما ذهبت!

أصوات تزهو بمجدها الرخيص، تحن للأمس المخمر بالذكريات وبالخسارات، تطل على الزمن الجنيني المولود في بوتقة ظلام غشوم!

وفي رواق ذاتك المتعبة تولد زهرة الياسمين، فتسرع نحو النافذة لترى جمال الربيع، وزهرات الياسمين في كل مكان ترافقها الفراشات ونسائم فجر جديد.

إنه الربيع؛ ربيع كل شيء، ساحرًا يلف المدينة؛ لينثر في سمائها عبق الياسمين!

فجأة تتقلص ابتسامتك التى أضاءت وجهك؛ لتترك مكانها لنظرة حزينة باهتة!

عندها أحسست أيها العزيز أن الخريف يزاحم – بكل قوة – هذا الربيع، وأن رائحة البرد تريد أن تهزم زهرات الياسمين!

توقيع:

كل الأشياء تصبح أوضح حين تفسر؛ غير أن هذا العشق يكون أوضح حين لا تكون له أي تفسيرات !

جلال الدين الرومي

أغنية الربيع

عساها تغفل قليلًا عن حزنها، فتتمكّن من خداع الوقت كي تستعيد قدرتها على الأمل الذي قتله اليأس، وتنفس من صدرها زفرة حزن عميق أخرس، وحيرة نبضها الأعزل، وتأنس بشموع صمّاء تحاول الإصغاء إليها لعلها تشاركها ألمها..

هى لا تحلم بالكثير؛ فابتسامة طفل جائع تكفيها إلى حدّ الشّبع، ومسح دمعة طفل فطم على وقع انفجار القنابل وأصوات الراجمات تأخذها الى الملكوت الأعلى.. طفولة خلقت كالملائكة بفطرتها البريئة التي لا تتصور إلا الخير والنقاء.. تعانق تسبيح الأنهار، وموسيقى الوجود البكر.. قبل أن يعرف الوجود معنى الأحزان والآلام!

واليوم تراها طفولة شاحبة كورقةٌ صفراء يابسةٌ نسيتها أمّها تقاوم الرّيح من غير جدوى.. بلا أملٍ!

نمت زهرات البنفسج مستبشرة بقدوم الرّبيع؛ ولكنها لم تتفتح حالما أتى الرّبيع..

كان القمر الساطع المكتمل يشبه لؤلؤة كبيرة ورائعة معلقة في السماء..

نهضت من سريرها، ونظرت من النافذة إلى الفناء الذي يغمره ضوء القمر.. لكن حتى رؤية هذا الجمال الرائع لم تخفف شدة ضربات قلبها وارتعاشات يديها!

صورة الطفل الجائع الذي يلتقط فتات الخبز من القمامة لا تفارق عينيها.. أشلاء أطفال البراميل المتفجرة تؤرق حلمها.. أطفال المخيمات الذين غيّر البرد والثلج ملامحهم تمزقها، وترمي بها في بئر الألم العميقة...

اتكأت على جحيمها، وعادت أدراجها إلى سريرها.. تنهش عقلها الأفكار، تدبدب كالنمل.. لا تصلح للكتابة ولا للحب.. تعبت كما تعبت أزهار البنفسج.. وتعبت معها زهرة الأوركيد الموضوعة على المنضدة تراقبها في صمت، يشبه صمت ذوبان الثلج!

قفز سؤال إلى عقلها المضطرب: من السبب؟ نعم من السبب؟

من طعن هذا القلب البريء؟ من حطّم طرد الربيع من حولها ؟ طفولة مغتالة منذ زمن، والخنجر المسموم يستمتع بتمزيقها أشلاء؛ في عصر الأرصدة التي ازدحمت أصفارها، والأرقام المنهوبة التي من الخيال رُصت، ليعيش أصحابها الثراء الفاحش، ولا يهمهم مصدرها ولا كيف مأتاها.. وطفلة تصرخ: يا أهلي أنا جائعة..

ترجّع الآه تلو الآه.. تلتقط الفتات من القمامة من فرط البلوى.. يلسعها الفقر.. أيبس أطرافها الثلج.. والجوع آذاها..

طفولة سقوها كأس الحياة ذلاً.. مرًّا علقمًا صافيًا حتى أرواها.. وابتسامة من فوق شفتيها اغتصبت.

يا زفرات حزن لو لمست جبلاً لخرّ لقهرك باكيًا، ولو لمس النجوم أبكاها! من سيكتب التاريخ عن دنياها التي أُظلمت؟ من ذا الذي سيبكي بؤسها وأساها؟

مضى عليها الليل طويلا كئيبًا .. ثم نامت ولا تدري متى وكيف...

استيقظت في الصباح وقد غمرتها رغبة جامحة في أن تستمع للاطفال وهم يغنون أغنية الربيع..

وأضاءت راااابعة عوالم بهيجة في داخلي

وأثناء سياحتي التأملية رأيت راااابعة: عالمًا آخر لا يشبه كل العوالم!

عالمًا فقدته البشرية منذ قرون كثيرة.. عالمًا يحملك معه إلى زمن بعيد.. بعيد جدًّا إلى أكثر من 1430 سنة.. عالمًا تشتاق إليه كل نفس مؤمنة.. تستشرف نفوسًا وأرواحًا كالتي عاشت رفقة الحبيب محمد عليه صلوات الله وسلامه..

رأيت راااابعة نهرًا منبعه الايمان ومعينه القرآن، ومنهله الرحمة الإنسانية، وقطراته ومياهه شهداء أبرارًا، ومجراه شعبًا اختار أن يحمل الحرية والكرامة للأمة كاملة والبشرية عامة..

نهرًا يتدفق بإيمان فريد وتضحية زكية.. إيمانًا أن الشعوب هي من تقود وهي من تسطر مستقبلها! وتحكم نفسها بنفسها ولنفسها.. تصنع وتخطط لمستقبلها.. شعوب تحنّ لماضيها التليد.

رأيت راابعة التى تريد أن تزيل سدودًا وضعت في طريق هذا النهر الرقراق وتحطم من أمامه الصخور، ليبحث عن مجرى جديد ينساب فيه.. فلقد حنّ هذا النهر إلى نبعه وفروعه وسواقيه .. أن ينساب غزيرًا متدفقًا، نهرا لن يجفّ مجراه..

ورأيت راابعة اليانعة النظرة فيها الروح لا تنكر المادة، والمادة لا تطغى على الروح.. راابعة التى تبشر بزوغ فجر صادق في سماء البشرية..

داعبت أسئلة كثيرة عقلي وروحي؛ حتى أرهقتني واستهلكت كل أنفاسي! ما سرّك يا رااابعة وماذا تخفين؟

وفجأة قصف الرعد وومض البرق وحل الظلام مصحوبا بقرع طبول الشر! فرأيت عالمًا آخر مظلمًا مرعبا.. ينتفض شرًّا وحقدًا وزورًا وبهتانًا وبطشًا! وقد تغشاه ظلام مرعب مخيف محزن أليم، يدعو كل إنسان الإشفاق عليه!

يا إلهي: أرباب السفاهة والضلال يبطشون في غرور كغرور فرعون، ويسبحون في تظليلات رهيبة مقيتة.. ليجروا الناس معهم إلى عالم غارق في الظلمات، عالم جفت فيه ينابيع الروح، حافل بالقهر والظلم والعتو والجبروت!

صرخت متألمة من أعماق قلبي وروحي وعقلي بل وجميع ذرات وجودي: واحسرتاه عليك يا رااابعة! اشتد حزني وعانق ألمي ووجعي عنان السماء.. وفجأة إذ بالسماء تمنحني نورًا منبعثا من الإيمان الراسخ الناشئ في وجداني، يحطم ذلك المنظار المضل، ويهب عقلي بصرًا نافذصا أرى به أسماء الله، وقد أشرقت كشمس ساطعة من فوق بروجها، لأستشرف اسم الله الحكيم والمنتقم الجبار والرحمن الرحيم والمحيي والمميت والباعث والوارث والعادل!

أضاءت هذه السماء بنورها الباهر عوالم كثيرة بداخلي، وأدركت أنه لا بد من راااابعة، وبعدها راااابعة، وبعدها ربما ألف وألف راااابعة؛ ليتحول هذا العالم المظلم إلى عالم بهيج، وأيقنت أنها معركة مع الشيطان، لتظل راااابعة ترياقًا شافيًا لجروح عصرنا الدامية، وإضاءة من إضاءات رب العالمين.. وستحارب أشد الطغاة والمعادين المتعنتين بسيف الإيمان والثقة برب العباد الرحيم.. ولعل هذا السر هو الذي سيجعلها لا تقهر ولا تُغلب ولا تنهزم، في وجه أشد الحملات شراسة الفراعين وخسة الجبابرة المتكبرين...

توقيع:

ضع في يديّ القيد ألهب أضلعي بالسوط ضع عنقي على السكّينِ
لن تستطيع حصار فكري ساعةً أو نزع إيمانـــي.. ونور يقيني
فالنور في قلبي.. وقلبي في يديْ ربّي .. وربّي ناصري ومعيني
سأعيش معتصمًا بحبل عقيدتي وأموت مبتسمًا.. ليحيـــا ديني

يا زهرتي وخلودي!

وأثناء رحلتي التأملية رأيت مدينة عظيمة في بلد الإسراء والمعراج، مدينة ذات أسوار عالية تحميها من الأعداء، عليها رجال شداد رهبان بالليل وفرسان بالنهار، ولهذه المدينة أنفاق ضخمة يقوم عليها الحراس الشداد؛ تفتح نهارًا عند مطلع الشمس، وتغلق ليلًا عند غروبها، فيمنع الدخول والخروج إلا لمن يحمل كلمة السر من الفرسان والحراس.

هي ليست ككل المدن فلا مدينة تشبهها، جميلة فاتنة بهية، ممشوقة القوام، ناضرة الوجه، في عينها كل معاني الربيع!

كل شيء فيها متفتح كالوردة الناضجة: صدرها الناهد، ونظراتها الجاهرة، وبشرتها المستملحة، ومشيتها المتوثبة، ولفتاتها السريعة!

هي إحدى نسائم عزة أيقظها تفتح الربيع، وأنضجتها حرارته، فانفلتت من كيانها تبعثر ما تجمع في كيانها من رصيد الحياة المذخور، تقف إزاء سماها مدهوشًا مأخوذًا!

كيف لا وأنت في حضرة غزة تاج الشرف وقاهرة الأعداء.

رأيت في غزة ألف برهان، وألف برهان، بمائة ألف لسان ولسان.. لا يسمعها الا من هو إنسان حقًّا؛ فأما من عميت بصيرته فلن يرى تلك الوجوه النيرة، ولن يفقه تلك الأقوال البينة؛ ففي غزة آيات ناطقة بالحق.

وفي تلك الليلة القمراء كان يحوم وينعق سرب من الغربان.. هناك يرقد أبطال دون قبور.. أيديهم على مقابض سيوفهم.. عيونهم يسكنها ضوء النهار.. ولياليهم قمر يسكب على الأرجاء نوره الشاحب، لينهض طفل من بين الموتى، مضرجًا بالدماء، معتمدًا بكلتا يديه على سيفه المبتور، ليصيح في إباء: أيا هؤلاء! أما من أحد فيه رمق من الحياة؟

يجيبه صدى صمت القبور: لقد ماتوا جميعًا، ماتوا جميعا أيها البطل الصغير.. ماتوا جميعا أيها الطفل الكسير، والكل لذل أسير.. ماتوا جميعا بين منتحر وقاتل وخائن وبائع وذليل.. نعم لقد اختاروا الموت يا طفلي بعد أن منحوا مفاتيح الحياة لشيطان لقيط..

رحماك ربي: عيناي تذرفان دمًا.. هذه خوذتي محطمة ودرعي مخرَّقة.. نزعت مساميرها ضربات الفؤوس.. رنين أجراس الكنائس يصم الأذان، وقرع طبول الموت يهدم كل بنيان.. والقوم في غفلتهم نيام نيام..

أسمع غمغمة واسعة تشبه زمجرة البحر وقصف الرعود: ترى كم من صياد جريء لن يعود؟ وكم من ذليل لن يموت؟ وكم من طفل سيحيا بعد تحطيم أصنام الطقوس؟

ألا يا أيها الغراب: يا آكل الرجال، سأدق على منقارك الحديدي ألف وألف مسمار!

لن تفتح بمنقارك صدري.. ولن تسرق زرقة السماء من عيني.. اذهب إلى عيون الظلام حيث يكرع النبلاء الجعة الفاخرة، وهم يغنون ويقرعون دنانهم الذهبية على إيقاع موت الأطفال..

أما أنت فاخفق بجناحيك يا جواب الضباب.. ابحث عن تلك الطاهرة واحمل إليها قلبي.. وعن أعلى البرج حيث تحوم العقبان ستجدها واقفة شامخة.. بيضاء ذات شعر أسود مسترسل.. وعلى رأسها حجاب العفة والشرف... عيناها أصفى ضياءً من البدر في أبهى أمسياته.. يا زهرتي وخلودي.. يا محبوبتي ونبع روحي.. أنا أشعر في عمق هذا الليل بشعاعات بدرك الذهبي تغمرني.. تتسلل وتنساب في قلبي.. اذهب إليها يا رسول السلام.. قل لها إني أحبها.. وهذا قلبي انها ستعرفه.. أحمر صلبًا غير شاحب ولا رعديد... يغلفه برد من نور الدعاء.. ووشاح منسوج من خيوط النور.. نور قذفه الله في صدري.. أني أنا صاحب الوطن.. وصاحب الأرض وحامي العرض.. ومهما سالت مهجتي ينابيع الدماء فلن أموت.. ولكن سأمضي شابًّا شجاعًا ضاحكًا حرًّا.. لأجلس على عرش من النور نجمًا جديدًا يطلع من جوف المحيط في سماء زرقاء صافية..

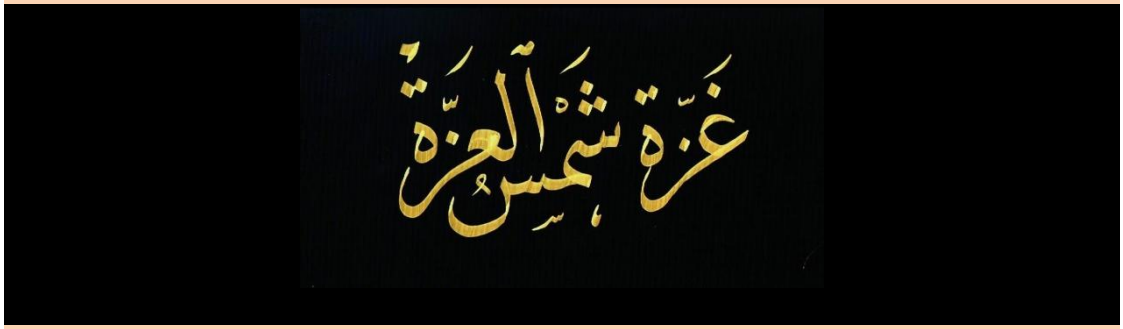

هي القدس

هي الأمانة المحمولة في نفوسنا منذ خمسة وستين عامًا! هي الأسطورة المغتصبة المنسية من تقويم الزمان! هي الكريمة القاتلة المقتولة، الشاهدة الشهيدة!

هي عبق التاريخ ورائحة المكان..

على مآذنها يُكَبر للنيام..

والطير المذبوح يرفرف حول قبابها، ومعزوفة السلام،

وهديل حمام!

وفرقة الموت تنتشي بدماء شعب الخيام!

يتراقص الموت لحنًا جذلًا على أنغام القصف والجوع والألغام!

هي الصبر والعزيمة والإيمان!

هي طفل ثابت شاهد، سياف وسيف، وعلى غصن الزيتون حسون شادٍ!

كفوا عن اتفاقيات الوهن يا عار الأمة والإسلام!

يأيها الزمن: تمهل، واكتب على جباه نباشي المقابر، وموتى الضمائر، ومنزوعي الشفاه، والمستسلمين لوحش الصمت!

اكتب أن التاريخ لا يتبدل، والحجر لا يتكلم، ولكن في القدس ينطق الحجر ويتكلم، ومن رحم القدس سيولد طفل أشهب، فيبصر الأعمى وينطق الأبكم!

آه تونس

آه يا تونس التي أعشق..

أراك اليوم أسيرة الصمت الذي يفصح عن مدى الأحزان!

ما تزالين حبيبتي في أوج الصبا! وقد تجعدت قسمات وجهك من هول الأشجان!

يا درّة الدنيا التى نثرت ياسمينًا في ربيعها الفتّان!

ما بال أهلك لم تعد أبصارهم.. تهوى الجمال كسائر العميان!؟

طردوا فراشك.. صادروا الزهر من مروجك.. وحلّ بليلك نعيق الغربان!

عربدت فيك الثعالب، ونهشت في جسدك مخالب الذئاب..

وشتت أهلك حقد الشيطان...

آه يا بلدي الذي أعشق!

من أكون؟

بقايا ربيع تُجمّل أنين الخريف!

وشاح ضبابي يلف المكان!

لا بحر في زمن الجليد!

ولا ماء خلف البراكين!

رائحة الدم تستبيح وحي التكاثر!

سهام الشر تحصد الأرواح!

لا تسألنَّ الميتَ عن موتِه؛ فقد يحلو موته لمن لا يريدُون موتَه!

سؤال يحيرني في زمن الغباوة والنفاق:

أأنا الشهيد أم القاتل؟

أأنا المظلوم أم الظالم؟

شر الحُب براءةُ القلبِ!

وخَيرُهُ وجعُ الفؤاد!

جيش من الشتاء يحاصرني!

انتهت العتمة أخيرًا من صنع بريق من لهب!

لهب الجمر من فوهة البراكين!

وانتهى قلبي من ترميم معبده القديم!

قلاع الآلام على شفير اليأس والأحزان!

أتيه في صحراء لم أكن رأيتها!

باردةٌ قاحلة جرداء!

يتلاشى فيها الزمن الفاصل بين الشروق والغروب!

وتختفي فيها الآحاد والمئات والعشرات والآلاف!

ترتادني أصداءٌ مجهولة!

ورؤىً تبحث عن مرايا تعكس أفقًا من شواطئ بعيدة!

ومن أمداء ضاقت بعد أن كانت رحيبة!

من هذا المكان العقلي!

ومن هذا الزمان الفضي للنبض!

ترتكب القصة بدايتها بحنق!

عبر مناخٍ بارد من التعب والوهم المزعوم!

جيش من الشتاء يحاصرني!

في فزع أشرع نافذتي علّي أرى زهرات الياسمين!

جلبة وضوضاء ضبابية!

صهيل بعيد.. ووقع حوافر ناء!

هدير بحر وضجيج سكون

اندفاعات الأمواج تنكسر على الصخور!

أوبرا بيتهوفن، وإيقاعات راقصة الفلامنكو الغجرية!

طبول الجيوش العثمانية!

وصوت حوافر القطعان في أدغال أفريقيا!

أصوات من هنا ومن هناك!

من هذا الزمن ومن ذاك الزمان!

أشباح دهماء تفيض بأطيافٍ تدبدب كالنمل!

وأفكار تولد من كل اتّجاه!

جيش من الشتاء يحاصرني!

حلم يتيم يترقرق دموعًا في عيني!

فتغشّيهما حواجز ليلية!

تمنعني عن الانفلات من أسر اغترابي!

ومن المسار الحرج لأجزاء الكيان!

صباحات واجمةٌ لا تنجلي!

ضباب سميك لا ينقشع!

أحصنة تجمح!

وقود الخوف يؤجج البواطن!

هواجس البحث عن أمان!

هواجس بحث عن إنسان!

هواجس بحث عن حب كان !

انتهى يومًا ومضى!

من أكون؟

توقيع:

الذاتُ تسألُ: من أنا./ أنا مثلها: حيرَى أحدّقُ في ظلام/ لا شيءَ يمنحُني السلامْ/ أبقى أسائلُ والجوابْ/ سيظَل يحجُبُه سراب/ وأظلّ أحسبُهُ دنا/ فإذا وصلتُ إليه.. ذابْ/ وخبا وغابْ!

نازك الملائكة

رحماك أيها القدر

إحساس غامض تسلل في كيانها، وتلجلج في خفاء!

أصابتها رعشة، حين حدثتها نفسها بأن ثمة شيئًا غريبًا يخيم على سماء قلعتها. تزاحمت الأفكار والهواجس؛ حتى كادت أن تأكل من عقلها جزءًا كبيرًا، ثم انتبهت إلى خبطات زخات المطر على زجاج نافذتها.

كم تعشق المطر، وتعشق رائحة الثرى المبلل بقطراته. تحب المشاهد التي تلامس إحساسها رؤية حبيبين يمشيان تحت زخات المطر! رحماك أيتها العواطف؛ فهي لا تحتمل منه كل هذا.

نظرت إلى السماء فوجدتها تزداد قتامة؛ مع تلبد السحب الداكنة الحبلى بالمطر.

تمنت أن تعزف لحنها مع هطول خيوط الماء في انسياب حريري ناعم، وبدت مقلتاها زمردتين خضراوَين يَنِزُّ الماء حولهما، فينسكب على سطحيهما ويسيل بطيئًا

باتجاه الوجنتين. وتحت وقع سمفونية خيوط المطر استسلمت لنوم عميق مهزومة ضعيفة أمام ليلة عصيبة من التفكير كادت أن تعصف بها .

ومع تسلل خيوط الشمس التى ملأت أركان غرفتها واستقرت على خصال شعرها الأسود، تغازل نعومة لمعانه الأنيق، استفاقت لترى عبر زجاج نافذة الغرفة فراشتين رقيقتين، تهفهفان كالنسمات، تتعانقان تارة، وتفترقان تارة أخرى، وقد تحومان حولها تريدان أن تداعباها، وتنسابان بخفة أمامها، ثم تجريان بعيدًا، وما تلبثان أن تعودا إليها!

دغدغ منظرهما أحلامها، وآمالها، همهمت وهي تبحر في سفر بعيد:

فراشتي هفهفي!

انثري شوقًا عطرًا من مهجتي!

لرجل أحببته في خيالي، بعيد في الغربة!

قبليه، والمسي شعره.. واهمسي في سرّه!

قولي بأنني في بعده أتوق لضمّه وحضنه!

قولي له إن روحًا عطرة تتوق إليه في شوق!

فلا تتماد في قسوتك، وامسح دمعة انتظارها!

بادر فضمها إليك وأطفئ نارها!

وبرغم الأحلام، وسكرة الآمال، ظلّ الإحساس الخفيّ الذي راودها منذ البداية، يزاحم المشاعر الجيّاشة، وما تدري، ألفراق سيكون، أم هو الوهم والحذر؟

حاولت أن تهتدي إلى إجابة مقنعة فلما عجزت، تركت الأمر للقدر.

فجأة

يكاد الليل يلفظ أنفاسه الأخيرة، وها هو صوت الأذان يعلو شامخًا من رؤوس المآذن العتيقة، وما تزال تمضي في جولتك مع ذاتك؛ باحثًا عن نفسك، عن شبابك، وكهولتك!

عن شباب مضى كومض البرق، أفنيته في طلب الدنيا، وكهولة مسحورة بالركوب فوق براق الطموح والنجاح!

مأخوذ بوهم تسلق الجدران العالية، والإبحار في عالم السفر اللامحدود، كقارب خشبي يتخبط وحده بين أمواج المحيط، متحديًا جبروت المحيط!

كنت تبحر سعيدًا بحريتك، مزهوًّا بقوتك، بمقاومتك لكل الأمواج العاتية التي تأخذك لتقذفك في كل اتجاه.

لم يكن في حسبانك أنك ستكون أنت هي الموجة المميتة التي ستصفعك، وتحيلك أخشابًا متناثرة!

اعتقدت بأنك تلك القمة الجبلية الشاهقة التي كنت تنظر إليها بعين الإعجاب، وتطمح في الصعود إليها، وتسلقها حتى النهاية!

وعندما تخلصت من كل قيود تمنعك من الوصول متجاهلًا دوران ساعات الزمن، وبدأت بالصعود اللانهائي توقفت فجأة؛ لتعيد قراءة تاريخ روحك، ونظرت إلى المرآة التي طالما تجنبت النظر إليها، لتدرك أن الشيب بدأ يغطي ذاك الشعر الليلي، وأن التجاعيد أخذت مكانها في ذاك الوجه القوي!

أعدت النظر إلى المرآة، وأطلت التحديق فيها لتدرك فجأة أنك بدأت تزحف نحو القاع!

وانتبهت لصوت الأذان هذه المرة!

توقيع:

شُغـل الخلائـقُ بالحياة وأغفلوا زمنـًا.. حوادثـه عليـهم تقتـرع

ذهبت بنـا الدنيا فكـيف تغرنا أم كيف تخدع من تشاء فينخدع

زهرات الريح

كان يقف خلف زجاج بيته الأنيق، المطل على البحيرة المتأنقة بصمتها، يتأمل الضوء الغامض للقمر، في ليالي شتاء تلك البلاد الباردة؛ كأنّما يحاول من خلاله أن ينزع عن الأشياء طابعها الفيزيائي، ويضفي عليها معاني وسمات وجدانية.

قد يكون الضوء الغامض في روعته كناية عن ذكريات توشك أن تغرب وتتلاشى. لكنه كان يعشق الضوء الخافت الناعم أكثر، وكان يعشق زهرات الريح، ويهيم أكثر مع خيوط المطر!

كان مفتونًا بفكرة الالتقاء بالطبيعة؛ في حال من التأمّل والعزلة، وكان يتوق لشيء لا يمكن بلوغه: قد يكون الجنّة الكامنة في طفولتنا، حسب التفسير الفرويدي.

هناك أيضًا شيء ما نبيل يداعب ذاته، مع نزول زخات الثلج في استسلام وهدوء لذيذ، وبات المشهد يضفي على اللوحة جوًّا من الدفء الممزوج بشيء من الحنين.

في تلك اللحظة شعر بقشعريرة تسري في كل جسمه. وتصاهلت خيول أفكاره واسترجع شريط الذكريات والطموحات والانتصارات! ولكن هناك شيئًا ما لم يفهمه! شيئًا يفتش عنه ولمّا يبلغه بعد!

أعاد التأمل في انعكاس ضوء القمر على سطح البحيرة، واستطاع أن يغمر نفسه في المكان؛ بحيث تحوّل إلى انعكاس لتأمّلاته الداخلية الخاصّة.

وفجأة انتبه لوجود طيف يقف على حافة البحيرة، يسترسل منه صوت دافئ ناعم، يرسم الجمال، وسر الجمال؛ كأنما يبدع لوحات حافلة بثراء ألوانها ولمعان أضوائها، وما تعكسه من حبّ للطبيعة، واحتفاء بالحياة تشبه في مكنونها موسيقى شوبان وكلود ديبوسيه، التي تمتلئ هي الأخرى بالتدرّجات الصوتية، وبالانفعالات، والمشاعر الجيّاشة!

وهام به الصوت، مع روح الليل وضوء القمر!

توقيع:

هل تخذت الغاب مثلي؛ منزلاً دون القصور؟ فتتبعت السواقي؛ وتسلقت الصخور؟
هـل تحمـمت بعـطر، وتنشفت بنـور وشربت الفجر خمرًا.. في كؤوس من أثير؟

جبران خليل جبران

سنابل القمح

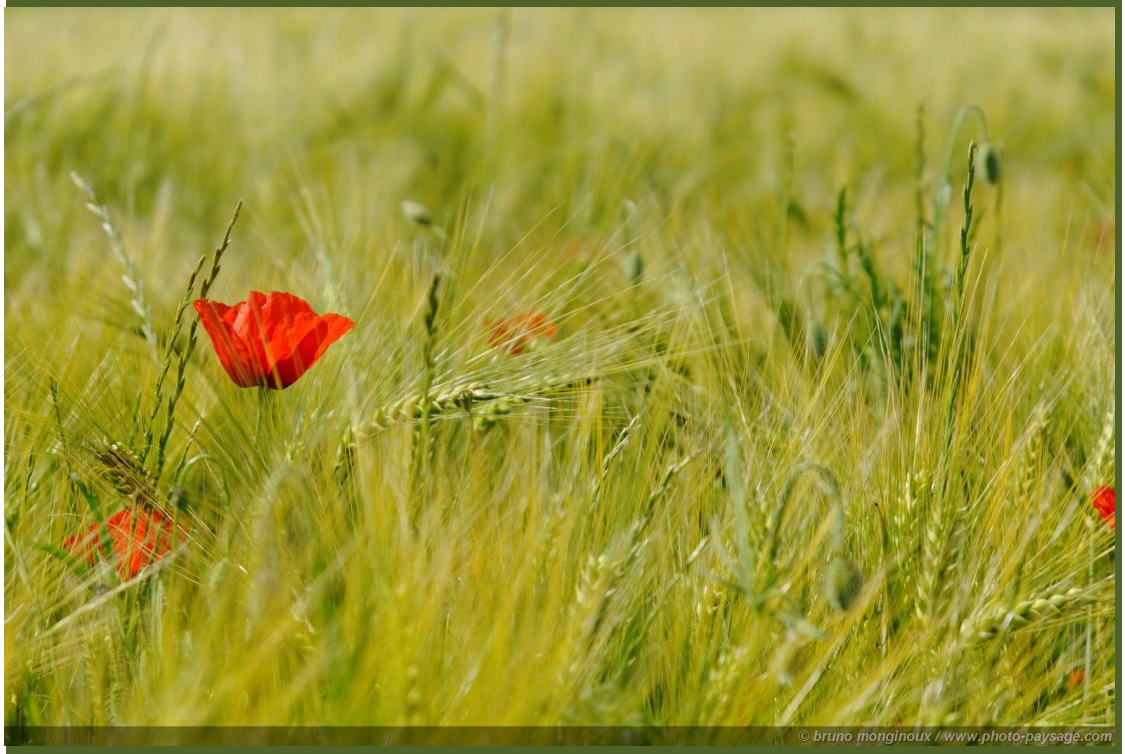

ضاقت نفسه بفوضى وجوده، فخرج من المكتب مسرعًا تاركًا وراءه جبالًا من الإمضاءات. أوقف السيارة بمحاذاة حقل القمح الممتد على مساحة شاسعة؛ حتى خيل له أنه بلا نهاية!

وهج شمس الأصيل يزيد سنابله تألقًا، ونسمات الربيع تمرّ بينها، فتتمايل رؤوسها برقة، وتبدو للرائي كسطح بحر يكسره تموجات الهواء. ومن خلالها تبرز زهور شقائق النعمان بجراءة الألوان، تتماوج أمامه بين صفرة السنابل، وحمرة الشقائق، وزرقة أزهار أخرى، وخضرة الشجر يكسو التلال المتناثرة حول الحقل؛ بأشكالٍ تجعل القلب يدرك كيف ينثر الله الجمال بالزهر والثمر والجبال والناس والدواب بشكل آسر!

أخذته نسمات الربيع إلى عالم صافٍ، لا يشوبه شيء، ودغدغت حواسه رائحة القمح الزكية!

استنشق رائحة السنابل ملء رئتيه، وأحس بتلك الذات المسجونة تدفع باب الزنزانة، لتخرج من ظلمة قاتمة إلى نور الشمس!

لفتت نظره حزمة من السنابل متقاربة جدًّا؛ كأنها قد فرّت خلسة، واجتمعت تتوشوش بأسرارها!

مدّ يده ليقتطف واحدة مثقلة بحملها، فمنعه خاطر من أعماقه آمرًا في حزم: لا تشتت البنات، اتركهن في همساتهنّ، وحلو أحاديثهنّ، وروعة ابتسامات هند.

توقيع:

ارحموا من في الأرض؛ يرحمكم من في السماء

قاتل الربيع

خلف نظاراته السوداء، تلحظ سواد قلبه وقطران صدره!

يقف ميت الضمير، ملوث العقل، مريض الأنا! ومهما بالغ في عملية التخفي وراء نظارته السوداء المقيتة كانت عيناه تتراءيان لكل من ينظر إلى ذلك الوجه الذي تعلوه قترة، معلقتين على نحو ينذر بالشؤم في قلاع الشؤم!

زفرات حقود في صدره المخنوق، تتصارع على نمط هستيري، تصل إلى كل سمع كعواء ذئب وقع في مصيدة، مصيدة عدو لقيط نجس لا يرحم!

مدركًا أن درب الرجوع عسير بات ككلب مسعور، يطلق عواءه المجنون، يتفنن في قتل الأبرياء، ويلطخ يديه القذرتين بدماء الشرفاء!

وكلما قتل أكثر زادت نوبات الصرع التي تعتريه؛ غير منتبه للعنة الضحية التي تنتقل إليه: تنهيدة أو إيماءة أو رائحة أو شخير البريء لحظة نحره، تلتصق بجسمه، وتتغلغل في جلده، وتسري مباشرة إلى قلبه المنهك بالبطش، والخوف والرعب من النهاية المحتومة!

رصاصة النهاية التي لا مفر منها عندما تنتهي مهمته، تظل الهاجس الذي ينخر في داخله، حتى يستجدي النوم فلا يدركه؛ ولو لبعض دقائق!

تظل حدقتاه كحدقتي ذئاب في ليلة مظلمة، حتى بات يكره النوم، ويترقب طلوع أول خيط شمس؛ مرعوبًا من طول الليل وسواده؛ بالرغم من أنه يأمر الجميع بعدم إطفاء الأضواء، خوفًا من العتمة!

ومع كل لحظة كانت تعتريه رجفة قوية تكاد تعصف به، تمزق أطرافه، تنثر جلده الملطخ بالدماء!

آه من دعاء اليتيم، وآهة الثكلى، ووجع المقهور، وعناء المهجر، والمشرد، والمظلوم، والسجين خلف أسوار الظلم!

إنها لعنة الربيع الذي طرده من موطنه؛ لعنة الربيع.. يا قاتل الربيع!

توقيع:

(لا يزال المرء في فسحة من دينه؛ ما لم يصب دمًا حرامًا) حديث شريف

الخاسر الوحيد

نزل الصمت رهيفًا يعانق الضوء الخافت لغرفة المكتب! وفي هدوء رواقه كان يصغي لهبات رياح الشتاء، وزخات المطر ترمي بها الرياح الناعمة على زجاج النافذة، وفي كل ركن من الغرفة كانت تلاحقه خطاباتها! أطنان من الكلمات، وأنهار من عطر روحها النقية كتبتها مع كل فجر، فعانقت كلماتها قطرات الندى، تلف الأجواء، وترسم مع خيوط الفجر أروع نسمات الحب، وأرقى وأحلى الأسماء!

نظر عبر زجاج النافذة فرأى طيفها، بعينيها البنيتين تكشفان عن كنزهما المخبوء!

وفي رهان القوة غير المعلن بينهما صار الخاسر الوحيد! عبثًا راحت كبرياؤه ترفع رأسها. وقفزت الدموع إلى مقلتيه لما قرأ آخر خطاب لها، فجاء صوتها ببياضه العميق يعتب: لم أحببتني إذن؟ ولماذا الرحيل؟

ابتلعه جبُّ الغربة، وهو يتوهم أن درب الرجوع يسير!

وجاء الصوت من أعماقه صارخًا، يغالب عواءه المخيف! ارثِ نفسك؛ فلقد بات طريق الرجوع عسيرًا!

لم يأت الربيع بعد

فوق شاطئ من ضباب أرجواني ترجلت أيها العزيز من فوق حصانك، كمحارب إغريقي شريد مكتئب! وفي دفء صمتك أخذك الشرود إلى منابر الكذبة الكبرى، ومسرحية الانتصارات الوهمية، وأغاني الربيع المبتذلة، وكواليس المسرح، وأسرار وأدوار وألغاز! إلى جبال الرمل، وكثبان الوهم، وتصحُّر الغد، وجفاف الجداول والأنهار، وعودة إلى تاريخ أثقله القَتْل، وبعث مواضٍ لم يقصِها الموت، وبأساء الدم، وترهُّل رومانسيّة ثوريّة، وحروب رِدَّةٍ، وحقائق مطمورة، وأمجاد منافقين، وسلطان مهرِّجين، وغياب الفواصل بين أجزاء زِحام كثيف!

تمنيت أيها العزيز أن تمشي على شاطئ هذه الأرض؛ بعنفوانيتك الجامحة، وابتسامتك البكر السخية، تشرب من ماء كوثري، وتعبر جسور الأمل، المطل على حقول القمح، تزكي رائحتها سنابل الحب الأسطوري!

لم لا وأنت الأصل الأصيل النقي الجميل الرؤوف الحنون المثال المستعلي!؟

لم لا وأنت من سلالة آدم وحواء!؟

لم لا وبين أضلعك نفخة إلهية طاهرة زكية!؟

فجأة – وفي فزع مقيت – تنظر الى أرضك وقد غزاها الشر، وهجّر أصحابها نسل لقيط، ورُحّل الهدوء الفردوسي بعد أن استوطن ساحة المدينة صخب أناشيد خرقاء، ولغة جوفاء بائسة ذليلة – مهما حاولوا ترقيقها وتفخيمها – وباتت حدائق المدينة جرداء قاحلة؛ إلا من نعيق غربان في جوف الليل المخيف!

تنتبه أيها العزيز إلى مد البحر – بعد الجزر الكئيب – لتدرك بحدسك المرهف أن قناع الطواويس هو الملف الأخير، وأن بعد كل تراجع تقدمًا، وأن بعد الخريف يأتي دائمًا الربيع.

توقيع:

فما ظنُّكم برب العالمين؟

حلم الربيع

ما أصعب العجز عن فك الحصار المضروب حول فوضى الدواخل! وما أقسى انتفاضات الكيان بحثًا عن خلاصٍ: هكذا علّمتك الحياة أيها العزيز!

علمتك أنّ حرّية التّفكير هي انعتاق من سجن الفكر، وأنّ التّفكير لا يكبت من الخارج وحسب، بل من الدّاخل أيضًا، في زمن يسود فيه التلاعب بالعقول، ووقت تسود فيه الغباوة زماننا، فيتأرجح العقل، ويتردّد في طلب الحقيقة مدفوعًا من السلام إلى التمرد، ومن الرفض إلى النّكران، والحركة إلى البحث عن معاني الأشياء، وإلى الخضوع إلى لغة الاحتقار!

وفي انفلات الذات من الذات إلى الذات جلست أيها العزيز في مكتبك الواسع الضيق، المظلم المنير، تفتش في الكتب القديمة عن أسطورة زهرة الياسمين، وفي إعلان الأفكار عن عصيانها!

تركت الأشياء تبحث عن معانيها، وأخذت تبحث عن الأشياء التي تخلى الناس عن معانيها!

لست تعرف أيها العزيز لماذا أصبح للياسمين أثر عميق في خاطرك، كم من وقت وضمةِ ياسمين تحتاج لتبتعد عنك غرابة المكان؛ فما عاد الثلج يكره الربيع، وما عاد الفرح يكره الياسمين، وما عاد التعب يجتاحك! والخوف والرهبة شفير حلم مجنون خاف منه الناس فخاف منهم!

ما أصعب أن يكون الحلم الجنون عينه!

وما أشد التعب الذي يولده الخذلان عندما تخفق مغامرة الحلم وتتوارى، وما أبرده حين تغادر الآمال أوطانها التي خيبتها، فيصبح الحلم باردًا، والمكان باردًا، والزمان باردًا!

فجأة تخرج من مكتبك مهرولًا تبحث عن زهرات الياسمين، تحتضنها إلى صدرك، فتستنشق عبقها، عساك تغفل قليلًا عن قسوتك، فتتمكن من خداع الوقت والمكان، وتستعيد قدرتك على الأمل الذي قتلته العتمة ونعيق الغربان، فتعترف بمكامن وحدتك وحيرة تفكيرك الأعزل، لتتغلب عن خمول نبضك وصمت شراييناك، فيتّقد فجأة شعورك، ويتدفق حسّك!

ومع نسائم أولى أيام الربيع ستدرك أنك ما تزال قادرًا على الحلم، ولكن الرهبة من فقدانه منعتك عنه رهبة تجبرك أن تسافر إلى غدٍ من هواءٍ.

غد يصبو إليه يُبّاس الرّوح، والمتعبون من الحياة. أما أنت أيها العزيز فستدرك أنك قادر على الحب والأمل، وستأخذك زهرات الياسمين إلى فضاءٍ خالٍ من الرّهبة، خالٍ من نعيق الغربان وقصائد الحب البائسة، فضاء رحب يملؤه التآلف لا التفارق..

لا تستنشق فيه إلا عبير الياسمين.

الكل يصنع لنفسه مجدًا

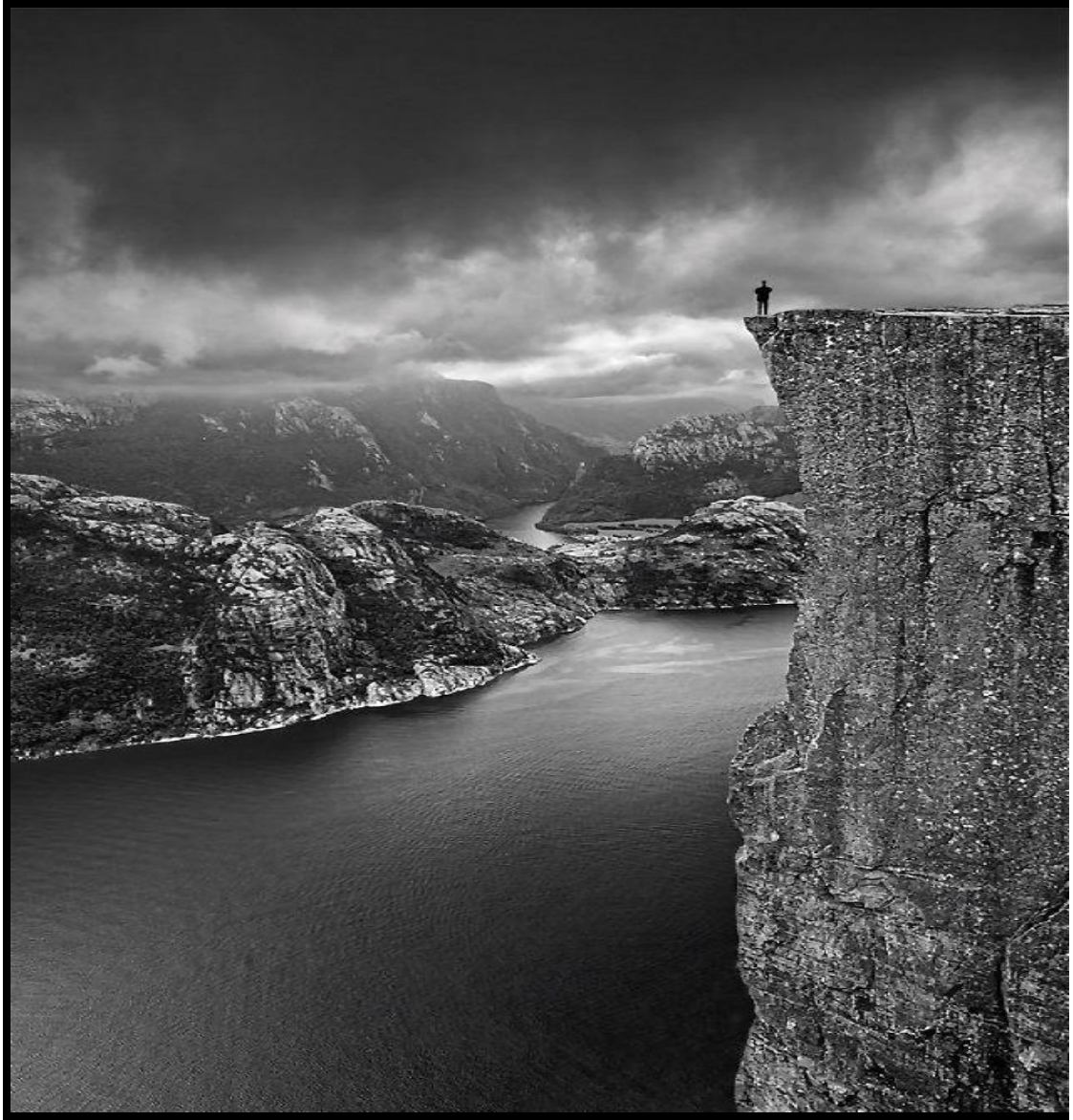

أبحث عن أشياء تعود الآخرون على نسيانها

أشياء تبحث عن معانيها بين تعاقب الفصول

وجاء الربيع

لكن الخريف سرق منه أجمل أيامه

خريف بلا مطر.. وسماء باهتة فاقدة الوجه

وصباح خائر الرغبة في أن يكون!

أصوات الحساسين غادرت.. وأسراب الخطاطيف

غروب الشتاء الباهت يرعبني

وما أزال أخاف العتمة والغول والمغول في خرافات جدتي

ما أزال تلك الصغيرة التي تحلم بالربيع

ربيع أرجاء لزجة هلامية لا تضاريس لها

ليت الوقت متسع حتّى أستطيع التمرد على نظم الطبيعة

لأحذف الخريف

وأصنع قلبًا قادرًا على النبض بماء زلال كوثري

ماء طاهر طهارة المزن

وعصافير لا تأكل الفراشات

ورؤى لا تشيخ.

حاولت أن أغسل الأمس لأمحو هويته

وأبدأ رحلة أخرى صوب الذات

بحثت عن الطفل الذي يرقد في مهد أرواحنا

رغبة عصية على الفهم

استسلمت للنوم أفتش عن حلم

لعلي أستنشق رائحة الربيع

وألقى لونًا لصباحي الرمادي

وأجوبةً لأسئلتي العائمة

فأستريح قبل أن أرى جسدًا يخون رأس صاحبه

وطفلًا يموت بعد أن أطبقنا عليه المهد

أطل من حيث لست.. وأغادر بلا وجع نحو ربيع النفوس

على المنضدة أدوات تجميل

وقصيدة لم يضع أحد عنوانًا لها

أقنعة تتقن وضع مساحيق التجميل

وفي ركن الغرفة المظلمة صندوق

وأسئلة تبحث عن أجوبة بريئة

وطيف ذاكرة من الياسمين

حر ونعاس ومجهول

وشاطئ صخري ومبانٍ صناعية

إيقاع غجري ورمال وقرع طبول

وأكياس من أوراق صفراء يابسة ميتة

لا ياسمينة هناك، ولا سوسنة، ولا أقحوانة

وما من أحد يكتب الشعر

وما من أحد يحب الياسمين

مشيت على خارطة من الحلم

فتوقفت فجأة على كوة أطل منها على دخائل النفوس

وللمرة الأولى أدركت معنى الرهبة

واكتشفت أني تأخّرت

وأن الحلم خاف من الربيع

فخاف الربيع ألا يعود

الأبواب مقفلة

القلوب من حجر

والعقول من مطاط

وصرير أفكارٍ صدئة

والعتمة تلف المكان

وفجر ظل يداهمه الظلام

وعناكب يشغلها الشّتاء

وأسئلة عن الفقر

وأبجدية من العدم

صور من سراب وأيام تمضي ولا تعود

وحلم ربيع يرقد في ذاكرة

وفجر أشرف على الطلوع

الكل يصنع له مجدًا من قش

متناسين أن المجد لله وحده

امرأة يسهل عشقها

تسكنني الرّهبة من حلمٍ لا أدرك فحواه

وتنزف منّي خواطر أهملها النبض

يتسلل الحلم الوردي إلى أجفاني الذابلة

يتعبني البحث عن أمل سرقته مني الأمكنة الرمادية

لا فرح في صحراء؛ إذ سكنتها الأشباح

فالعقل يعجز عن فهم الفرح في زمن الحقد

رحل أمس.. ولم يبق لي منه سوى التاريخ

وكتب منسية فوق كومة من الأفكار

ونص لم يكتمل بعد

وقصيدة دون عنوان

لا يزال الصمت يلف الظلام.. كما يلف الظلام الصمت

خارج الباب صقيع ورياح

وفي الداخل رائحة موسيقى خافتة

وراء النافذة ليل باهت، وقمر متألم يغازل سكينة البحر

في العقل صحراء قلب.. وأسئلة غريبة

وحلم ربيع يبّسه الخريف

فصنع منه حلمًا من بلور حائر بلونه

أمامي خارطة وسراب

وأكوام من نظرات تقطر عتابًا

وأمداء تمتد من عدم

لا أبجدية سوى الرّفض

ولا مكان إلاّ لتبرئة الخطيئة وحفظها في دمويّة كتب التاريخ

من حقّي أن ألملم حزني لأرميه خارج وحدتي

إني أعرف أن حلمي لم يتم.. وأن صوتي بلا صدى

ولكن التّصالح مع القدر يريحني

أما الخضوع لقدر الملوك فيؤلمني أكثر

ويؤلمني طعم الظلم الصّدئ لما تشرع أبواب القهر

وتؤلمني أيضًا قصائد العشق لامرأة يسهل عشقها

والكل يريد قتلها

تغير ظلمة الشتاء ملامحها.. فتصادرها صور من رماد

يلتهمها الوقت والشعارات الأخاذة

والخطابة المستهلكة

والبطولات الزائفة

والتّواضع المبتذل

لا فرصة لاغتيال الوقت

والتّمني متعب من الخذلان

والبؤس الآدمي.. والجبروت المتجمّل بالعشق

وأقنعة من صلصال

لكن.. من حقّي أن أمقت الأشياء الكريهة

وأن أستعيد مواطن رغبتي

من حقي أن أرسم جمال الجمال

من حقي أن أتمرد على سذاجة هؤلاء الشعراء

ومن حقي أن أصنع لهذه المرأة تاجًا من ياسمين!

متاهة من قلق

حقيقة من غمام

بقايا صدى تغرق في زحام

تفاصيل عصر من هلام

تارخ من ركام

وظل ظلام

أصل مجهول غامض مبهم

صامت ساكن

في كل ذرة من ذرّات الوجود

متاهات ودهاليز متشعبة

متداخلة

وهزة من قلق

تضاريس خفية في خارطة

أدوار وأسرار.. ألغاز وأخبار

من المدِّ إلى الجزر.. ومن الجزر إلى المدِّ

شمولية مجردة خواء.. تقطع نفس كل تفكير

وقطعة زبدة جد صغيرة على قطعة خبز كبيرة

وموت الفدية المضحى بها.. وتكرارها الطقوسي المستمر

عقول من مطاط

قلوب صدئة

وكومة من حديد تقتلع الأرواح

دموع أطفال

وهياكل عظمية ومجاعات

موائد متخمة

وضحكات وقهقهات

ظلام ونور وشموع ونجوم

وأنوار ساطعة تبهر الأبصار في ظلمات

وحفلات ورقصات

وبالأرقام والأصفار يتهامسون

وفي القلق نحن نسبح معلقين

لا وجود في هذه الهزة إلا للكائن الإنساني

الذي يحقق حضوره في القلق

قلق يخرسنا؛ لأن الكائن ينزلق في مجمله

والعدم يحاصرنا من كل جانب

وكل عبارة تنطق بفعل الكينونة تصمت في حضوره

نحاول أن نسد هذا الفراغ الذي أحدثه القلق

عبر التفوه بكلام مرتجل

عبر السير في متاهة من قلق

كون زاخر بالأحاجي والألغاز السرمدية

ومتاهة قلق ضاع فيها الفكر

واستغلق العقل

وضرب على الحواس

فدخل الوهم وحلّ الفناء

لكن.. في ظلام الصحراء بصيص من لأمل

يدفعنا لنخرج من متاهة العطش والجوع التي ضاعت فيها النفس

والتخلص من علائق الوهم

من هذا القاطن في محراب النفوس بينما نفتش عنه خارجها!

نفس تتكسر على شطآن اللانهائية عائدة إليه

إلى أصلها.. إلى الينبوع الأزلي

الله

الله الواحد

أيتها النفس لا تتوهي

واعلمي أن كل حي تارك

وأن كل مالك فاقد

وكل فاقد تائه

وكل تائه هالك

فاحذري يا نفس أن تملكي ما تفقدينه فتتوهي وتهلكي

واعلمي يا نفس أن خلاصك بين يديك

كنزًا ذهبًا لامعًا رغم مرور آلاف وآلاف السنين

سيبقى خالدًا خلود الحقيقة!

توقيع:

(إن إلينا إيابهم. ثم إن علينا حسابهم)

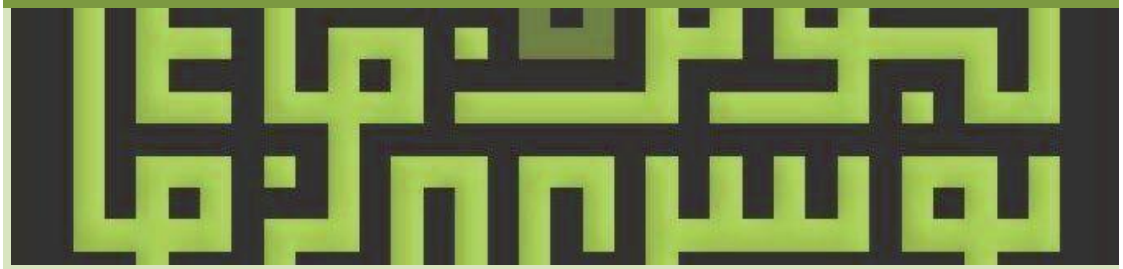

أحببت امرأة

بالأمس حلمت بأني هزمت الموت؛ لأن الحياة أجمل!

وأعدمت فروض الطاعة، وطقوس الولاء!

لقلبي نبض غريب وإيقاع ناشز!

أسمع صرير أبوابٍ.. وظلمة أجزاؤها واضحة

نباتات وأعشاب تنمو على نحو غريب

شجر أصابه وهن

وموجة من صقيع أهلكت أغصانه

وخريف قاس يتّم أوراقه

ومستنقع من نصالٍ مؤلمة

كم جحيم يحاصرني ليلعن أفكاري!

وكم عاشق يكرهني؛ لأني لا أؤمن بقصائد الحب المبتذلة

الحب.. الحب أوسع من حقيقته

أحببتها قبل أن أعرفها وتعرفني

استوطنتني

فرسمتها في قصائدي آية الجمال والصفاء والأمان

صنعت لها طوقًا من ياسمين

وشرعت كل النوافذ أمام قدوم الربيع

ولكن لست وحدي من أحبها

اكتشفت أن الكل يعشقها

عاشق يحبها كغريبة من غير أن يعرفها أو تعرفه

وآخر يشرع الأبواب لبرد الخريف

وثالث يتقن فن النقش على ظهرها بخنجر مسموم

رابع قلبه معها وسيفه عليها.. و..

تابعت رسم المشهد كعابر سبيل

فرأيتها تضل في متاهة العشق المزعوم

تمنيتها أن تكون فولاذًا؛ حتى لا تصدأ

ولا تأكلها ديدان الأرض

ولا ينخر عظامها سوس الموت

بكيت لوهنها؛ فقد أتعب البرد قلبها

ومزّق عواء الرياح الخريفية سكون حلمها

وانتشرت الأوجاع في بحرها

في صحرائها وسهلها وجبلها

استسلمت لحزني في وحدتي

كرهت قهوتي الباردة واسطوانات الأغاني الحزينة

ولكنّي كرهت أكثر البكاء والبؤس والنّواح

وكرهت نعيق الغربان كلما جنّ الليل

عاودت النظر إلي صورتها من جديد

وجدتها دافئة.. وأثرها نضرًا

وفي عينيها بحر أمل

كم حملت لي أفقًا كنت فقدته

أحببتها على نحو بسيط.. بعيدًا عن أشعار العاشقين المبتذلة

فحمتني من رهبتي

عانقتُ عطرها الياسميني

حبها ما يزال يدفئ حتى الثلج

فكيف إذا كان الحديث عن قلبها

ليتني أصحّح أخطاءهم

وأنسيهم عشقهم الفاشل لها

وأعلمّهم من جديدٍ: كيف يحبونها

رحلة عقل

الروح تنفتح على الدروب

ودربي طوييييييييل

ورحلة وحدة ثلجية

وأقسى فنون الاغتراب

غربة ورقات هبطت من المحل الأرفع

فلبست التراب

فكانت نبتة أو وردة

فراشة أو طيرًا أو إنسانًا

للطبيعة أسلحة العري

والمخالطة

والنظر

والأنس

والعشق والهجر والوصال

والتضاحك

ونزوع المعنى إلى المعنى

والزاد تراوده اللافتات الفاتنة

وللأخلاق المهزومة سلاح من القيم قد غاب

وسلاح من الحياء مكسور!

وأحلام اليقظة

إشراقات خيالية وأحلام يقظة وردية

تثلج الصدر وتسرح بنا في عالم مخملي

الكل يبحث عن خلاص

الكل يبحث عن الصعود

الصعود المجيد

فأكل البحث أوقاتهم

وشغل أرواحهم بفتنة الأنا

وذل الحنين الدائم للاسم اللامع

ترهة صنعتها روح العصر

وسكبت منها الكثير من التبرج في الأواني الذهبية

وشرعت الأبواب

أبواب المدن الصاخبة للانتشاء بالرياء والغش والانتفاخ الزائف

ومجازر المزايدة على قتل القيم

وأعمال مضنية تنهك الأجساد

ووجوه قاتمة شاحبة مقطبة مفزعة

وصراع مع أوحال الرصيف

وتناوب بين سقوط ونهوض

واختلط الحبر بالماء

لا أحد سعيدًا ولا أحد منتصرًا

السعادة بالنسبة للجميع غير مكتملة

السعادة ظل نبحث عنه في متاهة الدرب

كل الناس متعبون من أقدارهم

يطمحون إلى السعادة

ولكنهم من حظوظهم متبرمون

الملك و(العجوز)

متقلبًا في رغد الحياة يعيش مترفًا

يقطف من مروجها ما يحلو له من ألوان ورود

ويسكب الأمل شهدًا في خلايا السطور

يتصفح قاموس الحياة

لاحظ أن صفحة قد اختفت منه

كان قد كتبت عليها بعض الكلمات:

جحود وظلم وظلام وفتور

وفي بقية الصفحات نفس الكلمات تعاد

ترف ورغد وفروسية وخيول

وثريات الكريستال وأواني الفضة

وشموع تضيء كل القصور

وريش النعام والسندس والياقوت

هو في أوج سطوته

ملك متقلد تاج الشجاعة على عرش الخديعة

في مملكة زيف التاريخ

ليسطر أعاجيب السطور

ويحكم كما تحب سيدة قصره بين الحروف

تتراقص الصفحات في طيات فكره المشحون

ويغدق عليها من أنفاس الفرح فتنتشي جذلة

وبعيدًا عن تلك الحصون

فقط على الضفة الأخرى

رجل عجوز هائم على وجهه.. يبحث عن خيالات مضت

يصطاد الذكريات من بحور الذاكرة

ويعود متعبًا بغنيمة من لحن شجن

فينشد لحنًا حزينًا على رجْع الشجون

يغرق السطور في حبر الدموع

ليالي كثيرة يبيت جائعًا

وسنابل القمح تتبختر حبلى حوله في الحقول

حبة عنب فقط تطفي لهيب عطشه

وأطنان العنب ت!عتصر نبيذًا

لسيد القصر أفخم أنواع الخمور

ليست من حقه.. هي ملك لسيد القصور

وفي ليلة ارتشف الملك خمرًا معتقًا

في أقداح من اللؤلؤ المصقول

وتأمل لوهلة في مرآة القصر

ليرى شبحًا يلبس جلد ملك

وروح ذاك (العجوز)

توقيع:

سُدت أو لم تسد: فما أنت إلاّ حيوانٌ..مسيّرٌ مستعبدْ
إنّ قصرًا سمَكْتَهُ سوف يندكُّ.. وثوبًا حبكته سوف ينقدّ
لايكن للخصام قلبك مأوى.. إنّ قلبي للحبّ أصبح معبد
أنا أولى بالحب منك وأحرى.. من كساء يبلى ومال ينفد

إيليا أبو ماضي

كلما جنّ الليل

أسافر نحو الكواكب

لأغوص في الفضاء اللامتناهي

وأحلق عاليًا بين النجوم

تأخذني الأحلام إلى هناك

إلى عظمة الخالق والسر المخبوء

ذات ليلة سافرت

وعرفت شيئًا من سر الحياة في الأرض

وسر الموت في باقي الكواكب

واكتشفت أن الأرض هي الأجمل

انتابني الخوف فجأة.. وارتجفت أمام المجهول

لا أرى الأرض كوكبًا منيرًا يضيء!

لا إنسان يضيء!

لا شيء يضيء!

أرى فوهات براكين

وأشباح بشر

يرتدون زيهم العسكري القذر

ويحملُون بنادقهم

ويدورون في فلك شرورهم

يقتلون الأطفال والمدن والأشجار

وحتى العصافير

ويوقدون نار المعارك

ويحرقون أصابع الأرض الطيبة

ويرفعون رايات النصر الشريرة

ويزعمون أنهم يكتبون التاريخ

تاريخًا أسود قبيحًا

مظلمًا مقيتًا يبعث على الغثيان

ونمضي في حكاياتنا وحماقاتنا وحروبنا!

حتى نهاية الرحلة

ننسى أننا رحلنا نحو النجوم مرة!

ننسى أننا خلقنا للحب

ننسي أريج ثقافتنا

ننسى أفكارنا الجميلة

ننسى أننا خلقنا شعوبًا وقبائل لنتعارف

وننسى جمال الكواكب

وجمال الأرض سيدة الكواكب!

راااابعة

ستبقى إرادة الشعب رغم الأوهام الزائفة

وستبقي إرادة الأحرار رغم الأصوات الحاقدة

ستبقين يا مصر شامخة؛ رغم الريح.. ورغم العاصفة

سيصنع التاريخ تاج الشرف لراابعة الخالدة

يا مصر المجد فيك رجال

فيك نساء طاهرات.. أطفال ليوث

فيك الأحرار صانعو الأمجاد.. صانعو العز والتاريخ بالأيادي القابضة

ستنتصرين يا مصر

لأجل ابتسامة طفلك وتلك الجباه الساجدة

ودم شهيد وشهيدة زكّى ترابك

ودمع ثكلى في جوف الليل تناشد ربها داعية

وجرح بطل ينزف مزقته سكاكين الطاغية

ومجد صنعته راااابعة الصامدة

لا تحزني يا مصر النيل

لا تركعي ولا تبالي

رايتك ترفرف في العلالي

وأبطال راااابعة فرسان أشاوس

فجر يومك يا مصر يبدأ بالله اكبر

على عسكري طغي وتجبر

وعنترية كاذبة مشت علي ترابك لأسيادها تثأر

ومن أجل دمعة طفلك وتلك القلوب النابضة

سينصرك الله يااااااا مصر.. فالحق لن يقهر

زهرة الأحلام

الليل أطبق جفنه

فغفا طفل بين أكوام الدمار

صوت الرصاص يمزق السماء

ورائحة البارود والنار

أسمع في الأرجاء صدى الوجع

أسمع نواح الثكلى يعلو من بين الدِّيار

ارفقي بنا يا سحائب الدموع

رفقًا بأم الشهيد

والفقيد

والجريحِ

والمهجّر

والأسيرِ

والمشردِ الرضيع
من أين أبدأ لست أدري
ذلك القلق المخيّم فوق صدري
والحزن المتجمد في أوردتي
ومشهد طفل يقتلني
وغصة شريف مقهور تعصرني
العالم المجنون يركض نحو متاهة الحياة
مخلِّفًا كل الدَّمار
الوحوش الآدمية تحكم بالنير والنار
ووجوه الشر يكسوها البطش.. والغدر.. والغبار
فيك يا شقيقة وطني أنفاق حزن
من مخارجها المداخل
فيك دمع اليتامى.. وبكاء الثكالى.. وجراح الأرامل
فيك شيخ ذاق قهر الرجال
فيك طفل أيبس أضلاعَه الثلج
ويتيم مشرد بلا عائل
فيك ذئب يغنَّى بصوته النشاز ألحان البلابل
ضباع كامنة في الصّحراء
في الحواري والأزقة
على أفواه الطرقات
على كل المخارج يترصد القوافل
وشياطين ترقص في كل المحافل
ضيعوك في غابات الأوهام
حجبوا عنك الرِّياح بألف مخذول وخائن
وعلى المسرح يتشدق كل بائع وعميل وقاتل

خدَّروك حتى النخاع
ومزقوا الشرايين وفككوا المفاصل
كل الأحلام صارت خطايا
وكل الأمنيات صارت منايا
يموت العاشقون على ضفاف الأماني
ويلون العلم بأحلام الضحايا
ولكن.. رويدك أيها الربيع لا ترحل
فلقد زرع ابن الشام زهرة
وحتمًا أيها الحر سوف تزهر
فالكل منتظر.. والحلم سيشرق

توقيع:

وما كان الله ليضيع إيمانكم!

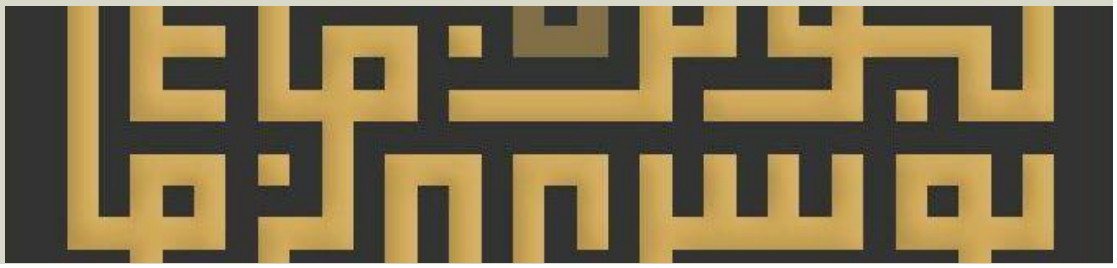

ينابيع السعادة

يا طالب السعادة في غير موضعها

تظل تجوب قاعك في شقاء

تشيّد من الأحلام قصورًا

وتحسب السعادة في الغنى

تجوب الدنيا طولًا وعرضًا

باحثًا عن اللؤلؤ في الصحراء

فتعود صفر اليدين

مجهد البدن

كسير النفس

خائب الرجاء

وفي قاع شقائك يهمس شيطان

أهل الجنة ليسوا سعداء

وفي استسلام وعماء

تركب مراكب الفضاء

ليتدفق الذهب غطاءً جميلا

ولكن في أروقة روحك تعاسة وشقاء

تنظر من فوق عيون السحاب

فترى النفس تجوب الأفق لا تجني غير العذاب

كسفر البؤساء وجهد الهباء

لو كان لك يا بن آدم واديان

لابتغيت ثالثهما ذهبًا.. وقطعان نساء

وأولادًا من زهرة الحياة

وجبالًا من بطش وكبرياء

بحثًا عن السعادة أفنى العمر من غبروا

يطلبون من العلم طلاسم الغيب

وفي المطاف لذعتهم حسرة

أشد إيلامًا من ناب حية رقطاء

السعادة يا بن آدم نبع رحمة وطمأنينة وصفاء

السعادة لا تحتويها خزائن

هي انشراح صدر.. وطهارة مزن

وراحة نفس كزرقة السماء

هي ينابيع السكينة والأمن

وهي الأمل والرضا

الإمساك بروح المكان

ما كان يسمح لعقله بلحظة راحة واحدة يلتقط فيها أنفاسه اللاهثة، فالتوقف يعني الجمود والخمول!

انساق وراء نزوعه الملحّ لاغتيال كل ما يراه تحديًا ومستحيلًا، واندفع بقوة شبابه وبظمئه الكبير للنجاح والصعود إلى المجد العتيد.

ولكنه – مهما بالغ في التخفي وراء أشواق البطولة – تظل نظرته للحياة نظرة شاعر تهفو نفسه إلى البوح في صمت أنيق، ويكتفي بمغازلة الروح في ليالي الفقد، مع تطويعها كي تزاوج ما بين الفكر والعاطفة.

أوقف سيارته على ربوة تطل على الشاطئ، ومسح بعينيه ذاك المشهد فشعر بدفء الشمس، وبالنسيم الذي يحرّك الغيم، ويثير العشب، وراح يملأ رئتيه بالهواء المالح، ورائحة الأزهار، وهام مع زرقة البحر وصفاء السماء!

أية قوة غامضة تكمن في هذا المشهد حتى تستولي على الرجل هكذا، وترحل به بعيدًا عن كل من حوله وما حوله؟ وما يجعل هذه اللوحة ذات سحر خاص؟

ربما تضمّنت بعدًا شخصيًّا، وليست مجرّد مناظر عامّة للطبيعة؟ وربما تكون رحلة إلى عالم الإحساس البدائي؛ بما يتضمّنه من رؤى، وإدراك، وكشوف عن الذات!

أو ربما هو حبه للحياة والجمال، والسلام الذي كان يسكن نفسه؟ فهو يعتقد أن العالم – برغم ما ينوء به من صراعات ومشاكل – ما يزال مكانًا يضمّ بين جنباته الكثير من مفردات وعناصر الجمال الذي لا تحدّه حدود!

كان يرى في قدسية الروح هالة مضيئة تكشف قدسيّة الحياة، ورمزية الأسطورة، وتدعو للكشف عن غموض وجمال الكون المختبئ وراء المظاهر المادّية والمصطنعة للأشياء!

كان يرفض الوقوف على عتبات عالم مفقود في الثلج والظلام.

ومع وقع صوت اصطفاق الامواج على الشاطئ انتبه إلى أنه يمسك بروح المكان!

عزيزي القارئ

إن الربيع لا يتحرك عبر الزمن المطلق، وكأنه خط مستقيم، يمضي من الماضي إلى المستقبل؛ دون أن تشوبه شائبة، أو يزاحمه خريف! بل إن الربيع يتحرك من خلالنا وفي داخلنا.. في لوالب لا نهاية لها..

الربيع في طهارة القلب، ونقاء الضمير، وقيمة الأفكار التي يحملها العقل، وقدرة هذا العقل على تغيير الحياة حوله..

لقد لمس الربيع قلوب المقهورين والضعفاء والبائسين، وانحنى على جراحهم وآلامهم بالرحمة والعطف..

أما المستكبرون الكبراء، وأصحاب النفوس المريضة، وعشاق العبودية فقد تأملوا الربيع بعين الشك البارد، وحاربوه بكل ما أوتوا من قوة..

إن الربيع لا يعني السعادة المطلقة، ولا يعني الخلود الأبدي؛ وإنما هو العشق الذي يستولي على القلب، فيملؤه نورًا وإشراقًا ومحبة لله وللحياة، ورضا وشكرًا؛ فتنتفي عنه الشكوك والهموم والغموم!

ومن ثمراته أن يدعو إلى قصر الأمل والحب والتوكل والصبر.. نعم الصبر..

إن استحضار الربيع، والتحقق به، وممارسته، يجعلك ممسكًا بناصية الزمن الحاضر أو اللحظة الآنية.. أو الساعة التي أنت فيها.

وما ضيع الإنسان هذا الكنز إلا بضعف اليقين والسباق مع الزمن في متاهة القلق، لذا تجده يحس بسرابية الزمن الحسي الذي ينسرب من بين أصابعه انسراب المياه الجارية.. فلا تكاد يده الإمساك بلحظة واحدة منه! إنه يفلت من بين يديه وهو في ذروة الاعتقاد بامتلاكه!..

الربيع عزيزي القارئ هو النور الأبدي المتوهج داخلنا، والمتربع على عروش قلوبنا!

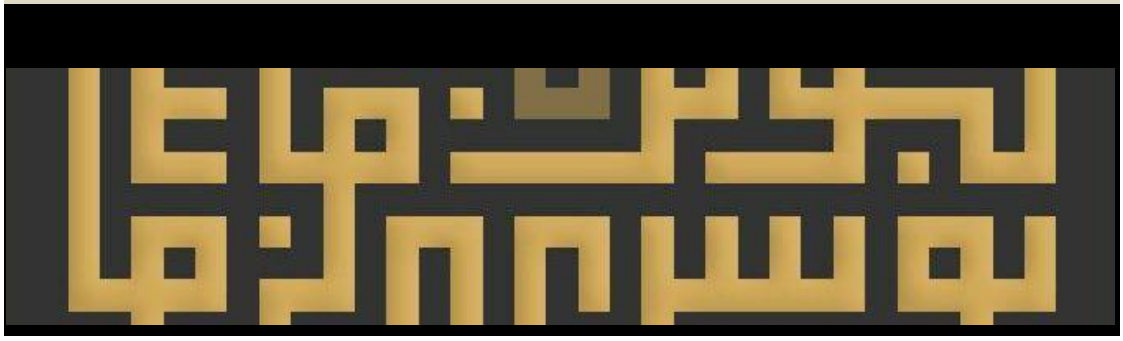

الدكتورة كوثر يونس:

لولا مهنتي كطبيبة للمتوحدين وذوي الاحتياجات الخصوصية، ما تفطنت لقدرتي على الكتابة! ولولا التأمل في ضوء تلك الشموع التي تريد أن تضيء؛ رغم هبوب رياح خريفية قاسية باردة عليها، ما اكتشفت رسائل العشق وعشق الكتابة!

ففي عيون أولئك الأطفال أسرار بحر، تتحول أمواجه الثائرة من أفواه مفتوحة للموت إلى سطور من أبيات شعر، زرقاء، تقبل أقدام الشاطئ! وفي نفوس ذويهم بحار حزن وألم حين يثور؛ عبثًا تسأل عن رحمته أو ترجوه ضبط أنفاسه!

إنه يغمر النفس لاهثًا جامحًا كأنه جواد حرب هائج مجنون ينجدل عنه فارسه! وأمام رياح الصبر والسكينة والرجاء واللجوء إلى الله هاهو البحر الغاضب المهول يتحول إلى طفل بالغ الوداعة، وها هو الفارس يعود إلى امتطاء جواده بعد أن بعثته رياح الرحمة الإلهية من الموت والضياع..

من خلال هؤلاء الأطفال وذويهم ألهمني الله فن الكتابة والسعي لمحاكاة الذات البشرية! ومن خلالهم عانق قلمي الربيع وعشقه، فراح يحكي عنه في فرحه وحزنه، وانتصاره وألمه!

وما الربيع إلا إشراقة روحية فينا؛ مهما كنا، وأينما كنا، وكيفما كنا..

قالوا عن أنين الربيع:

هذه بعض آراء كبار النقاد الذين قرؤوا أنين الربيع قبل صدورها، أحسن الله إليهم كما أحسنوا وأكرموا وقرظوا.

ك. ي.

"أنين الربيع" في كلية الآداب بجامعة السلطان قابوس

الناقد الكبير أ.د. محمد جمال صقر

أخي الكبير الكاتب الأديب، الأستاذ عبد السلام البسيوني:

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته!

أحييك على تقديرك لموهبة الدكتورة كوثر يونس، وأشاركك فيه؛ فقد أحسست بيدها الحانية تمسح عن جبين الحياة الطيبة ما ران عليه من أوضار الدنيا، وتضاحكها، وتسليها، وتبشرها، وكأنها تقول لها:

لا تقلقي سوف يأتي بأعجل المعجزات

ليشرع الباب أفقًا على سماء الحياة

فكل من صد عنه مضى بعهد النجاة

الذي سلف مني في مثل مقامها – حتى قررت نصًّا من "أنين الربيع"، على طلابي بكلية الآداب من جامعة السلطان قابوس، تقديرًا وتثبيتًا ودعاء دائما بالتوفيق والسداد!

محمد جمال صقر

الأستاذ بجامعتي القاهرة والسلطان قابوس

بسم الله الرحمن الرحيم

أنين الربيع!

الناقد الكبير أ.د. حلمي القاعود الأستاذ بجامعة طنطا

هذه مجموعة خواطر ومشاعر وتأملات وقصص وقصائد، جمعها كتاب إلكتروني للدكتورة كوثر يونس، وهي طبيبة نفسية متخصصة في علاج مرض التوحد لدى الأطفال، وهو مرض فيما أتصور يعزل الطفل عن المجتمع، وعن المشاركة مع الآخرين ليعيش مع ذاته؛ دون استيعاب لما يجري حوله في حقول العلم والمعرفة والسلوك.

وأظن أن مهمة الطب في هذا المجال من الصعوبة بمكان، فإخراج الشخص من عالم إلى علم آخر يحتاج جهدًا مضنيًا، وعملا دؤوبًا، وصبرًا يشبه صبر أيوب.

ويبدو أن الدكتورة كوثر اختارت هذه المهمة عن طيب خاطر وأريحية كريمة، تهدف من ورائها إلى التأمل في النفس البشرية والرحلة في أعماقها مثلما يرحل الإنسان في أرجاء المعمورة فيكتشف معالم ومعارف لا عهد له بها.

كنت أتمنى أن أضع هذه المجموعة تحت جنس من الأجناس الأدبية ولكنها فيما بدا لي تجمع معظم الأجناس. كما أوضحت في الجملة الأولى من هذه الكلمة، ولكنها على كل حال أجناس أدبية يجمعها الخيال والواقع من خلال عصارة التأمل والرغبة في إصلاح العالم.

تعتمد هذه العصارة على صياغة شاعرية تعتمد لغة رومانتيكية تمرح في أرجاء الطبيعة ومفرداتها؛ بدءًا من الربيع وأنينه، وبقية فصول السنة والسماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والحقل والبحر والثلج والندى والزهور والجمال والضوء

والريح والعطر والألم والحزن واللحن والنسيم والياسمين والطهر والنبل والعشق... وتصطدم بالواقع المرير والجور والظلم والقهر والطغيان والسجون والفرعنة والرحيل والغربة...

في كل موضوع نطالعه في هذه المجموعة نقرأ صفحة من صفحات النفس البشرية في مدها الإنساني وجزرها أمام صعوبات الحياة. اقرأ على سبيل المثال قصة السيدة كوزان التي تخشى الموت وتتصرف بطريقة مريعة خوفا على حياتها وبقائها نتيجة لثقافتها ومعتقداتها. واقرأ صورا عديدة تشدك إلى الواقع وتنبض بنسغ الحياة ومواضعاتها.

الدكتورة كوثر مهمومة بقضايا أمتها، وأحوالها، وتقول لنا بلغة رمزية إن بهجة الربيع تصحبها دائما آلام صعبة، وكأنها تذكرنا بالشاعر الإنجليزي ت. س. إليوت في مطولته الشهيرة "الأرض اليباب" ومطلعها: إبريل أقسى الشهور/ يولد زهور الليلاك من الأرض الميتة/ ويخلط الذكرى بالرغبة/ ويهيج الجذور البليدة بأمطار الربيع". فعلينا أن نحتمل مع البهجة مزيدًا من الألم وألا نيأس! وهو ما ألمحت إليه في مفتتح مجموعتها:

" كلما تمضي الحياة.. ازداد عطشها إلى الربيع.. ربيع شموس تضيء بغير أن تحرق أو تحترق.. شموس تستمد ضوأها من الأرواح الطاهرة والأنفس النبيلة.. ربيع العشق.. عشق كل شيء جميل في كون الله تعالى".

وربيع العشق يبدو تحولاً نتج عن أنين الربيع، فمفردة العشق، مبثوثة في ثنايا المجموعة؛ في العناوين والجمل والعبارات والفقرات، ومصطلح العشق أقرب إلى مصطلحات الصوفية في العشق الإلهي عبرت عنه في واحد من توقيعاتها التي تختم بها موضوعاتها بقول جلال الدين الرومي :

"كل الأشياء تصبح أوضح حين تفسر؛ غير أن هذا العشق يكون أوضح حين لا تكون له أي تفسيرات!

أو بأبيات الخيام الشهيرة :

أولى بهذا القلب أن يخفقا وفي ضرام الحب أن يحرقا

ما أضيع اليوم الذي مر بي من غير أن أهوى وأن أعشقا!

إن الروح الإيمانية التي تحكم هذه المجموعة تقف وراء كل فكرة وكل موضوع يدل على أن الكاتبة تملك روحا إنسانية كريمة، وهي كما وصفها صديقنا الأديب الكبير عبد السلام البسيوني كتلة من العقل والعاطفة، غواصة في أعماق الأفكار والمعاني، عاشقة متفلسفة، أديبة ترسم بقلمها وذوب قلبها لوحات من النور والإنسانية والنبل، جديرة أن يعيش معها عشاق الربيع ومحبو النور، وحراس الإنسانية..

بقيت الإشارة إلى أن إخراج المجموعة على الشبكة الإلكترونية قطعة من الجمال تدل على ذوق رفيع لعله ينتقل إلى الورق حين يتاح لها أن تطبع في كتاب.

حلمي محمد القاعود

ختام

هذه هي كوثر يونس في مجموعتها الثانية أيها القارئ الكريم: كتلة من العقل والعاطفة، غواصة في أعماق الأفكار والمعاني، عاشقة متفلسفة، أديبة ترسم بقلمها وذوب قلبها لوحات من النور والإنسانية والنبل، جديرة أن يعيش معها عشاق الربيع، ومحبو النور، وحراس الإنسانية.. فاقرأ، واطرب، وارتقب معي عملها التالي الكبير: سِفر العشق!

ع. ب